لماذا نقرأ؟

لطائفة من المفكرين

تقديم: رجب البنا

الطبعة الثانية

دار المعارف

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

اهداء

الى السيدة سوزان مبارك

تقديرا لدورها في بعث النهضة
الثقافية والحضارية .. واعادة الكتاب الى مكانته
وتحقيقه لريادتها لحمايته ورعايته الاجيال
الجديدة ..



رجب البنا

قصتى مع الكتاب

قرأت هذا الكتاب لأول مرة وأنا طالب فـى المدرسـة الثانويـة، وأعجبنـى إلى حد أنى كنت أحث زملائى على قراءته، وأعيره لهم حتى وقـع فـى يـد واحـد ممن لا يردُّون الكتب فضاع منى، وظللت سنوات أبحث عنـه فـى كـل مكتبـة، وأسأل عنه كل صديق، فلم أوفق فى العثور عليه.. ولكنى تـأثرت بـهذا الكتـاب تأثرًا شديدًا، حتى أننى أتصـور أن حبـى للقـراءة وتعلقـى بـالكتب ازداد كثـيرًا نتيجة لهذا التأثر..

وظللت لسنوات أتذكر ما كتبه العقاد فى هذا الكتاب بصفة خاصة، مـن أنـه يقرأ لأن حياة واحدة لا تكفيه، وهو يريد أن يجمع بين حياته وحياة المئات من الرجال العظام أصحاب الفكر والتجربة.. وفى كل كتاب كنت أقرؤه كنت أجـد تصديقًا لمـا قالـه العقـاد.. فـالقراءة هـى الوسـيلة المثلى للتعلـم، وإضافـة أفكـار وخلاصة خبرات الآخرين إلى خبراتنا وأفكارنا، وهـى النـافذة التى نطـل منـها على العالم الواسع خارج دائرة الذات المحـدودة، لنعيـش الحيـاة بعمـق أكـبر، وبوعى أعمق..

وحين توليت مسئوليتى عـن دار المعـارف شـعرت أن هـذه منحـة مـن اللّـه، لأعيش فى الجو الذى أحبه، وأعـايش أصحـاب الفكـر والـرأى، وأقضـى بقيـة حياتى بين الكتب قارئـا، وناشـرًا، وأحـس أننـى أصبحـت مثـل النحلـة التـى وجدت نفسها فـى بسـتان كبـير، فلـم تضيِّـع الفرصــة ، وقـررت أن تقضـى أيامهـا بامتصاص هذا الرحيق الجميل.. وأحمـد اللّـه أن أتـاح لى هـذه الفرصـة لكى أشارك بنصيب – مع زملائى – فى تقديم الكتاب الجيـد للقـارئ العربـى،

ودار المعارف - كما كانت منذ نشأتها في عام ١٨٩٠ - هي بيت الثقافة الرفيعة، ومصدر الإشعاع الثقافي الذى لا ينتمى إلى مصر وحدها، بل ملك للوطن العربى كله.

وكانت دهشتي شديدة حين التقيت بمفتى جبل لبنان في مكتب الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوى فبادرنى بالحديث عن هذا الكتاب، وقال لى: إنه قرأه في صباه وتأثر به، وطلب منى بعض نسخ من هذا الكتاب لكى يقدمها لأصدقائه وأبنائه ومريديه، لكى يحفزهم على القراءة.

ووعدته بالبحث عن نسخة، ولكنى لم أستطع أن أفى بوعدى، لأنى اكتشفت أن جميع النسخ نفدت منذ سنوات طويلة، ولم يعد فى دار المعارف منها ولا نسخة واحدة، ولا حتى فى مكتبة المحفوظات فيها.. وبدأت رحلة البحث عن نسخة إلى أن عثرنا أخيرًا عليها عند هاوٍ قديم للكتب يعرف قيمتها، ويحرص على الاحتفاظ بها، ورأيتُ أن أُضِيفَ إلى الكتاب القديم الذى شاركتْ فيه صفوة العقول والأقلام المصرية أستاذًا رسالته أن ينشر القراءة، ويشجع الشباب من أبنائه الطلبة على القراءة، ألا وهو الدكتور حسين كامل بهاء الدين وزير التربية والتعليم، فهو شديد الحماس لمشروع القراءة للجميع الذى يمثل نقطة تحول هامة من وجهة نظرى، بفضل رعاية السيدة سوزان مبارك، واهتمامها الشخصى، ومتابعتها للتوسع فيه عامًا بعد عام، لتكون الكتب الجادة متاحة بسعر رخيص لكل القراء العرب.

□□□

وفى اعتقادى أن الأجيال القادمة سوف تؤرخ لمرحلة النهضة المصرية بهذا المشروع.. لأن مواجهة الأزمات الاقتصادية، والاشتراك فى أربع حروب فى

نصف قرن، والمعارك السياسية المتتالية.. كل ذلك شغل المصريين لسنوات طويلة ثم جاءت مرحلة التنمية الاقتصادية والصناعية والعمرانية لتشغلهم فى مجال آخر.. وابتعد الشباب بصفة خاصة عن جانب مهم من جوانب التنمية الإنسانية.. هو جانب التنمية الحضارية والثقافية الذى يتجلى فى القراءة، ومتابعة تيارات الفكر والإبداع فى العالم، والارتقاء بالعقول وبخاصة عقول الأجيال الجديدة التى ستتولى القيادة فى مختلف المجالات ولابد أن نحسن إعدادها لهذه المسئولية الثقيلة.

□□□

وكان لمشروع «القراءة للجميع» الفضل فى كشف حقيقة مهمّة.. هى: أن بناء الإنسان عملية متشعبة، ومتعددة الجوانب، تقوم على عوامل كثيرة مختلفة ومتكاملة تبدأ من الطفولة وتتحمل الأسرة النصيب الأكبر من المسئولية عنها.. ثم تنتقل المسئولية إلى المدرسة لتشارك الأسرة فى عملية تكوين الطفل، ويشاركهما التلفزيون فى جميع مراحل العمر، بعد أن أصبحنا فى عصر أصبح فيه التلفزيون الرفيق الدائم الذى يقوم بدور الأب والصديق والمعلم فى وقت واحد، ومنه يأخذ الطفل - والشاب - القدوة، والمثل، والنموذج، ويتغلغل تأثيره فى أعماق الطفل - والشاب - نتيجة السحر الخاص به من مشاهد حية، ومواقف وألوان من السلوك يتعلم منها الصغار - والكبار - كيف يحبون حياة الفضيلة، أو كيف ينزلقون إلى حياة الرذيلة، بل إن التلفزيون فى بعض الأحيان يعلم من لديه استعداد للجريمة كيف يرتكب الجريمة الكاملة مستخدمًا أدوات العصر..!

□□□

ولذلك فإننى أرى أن مشروع القراءة للجميع جاء فى الوقت المناسب ليعيد الإحساس العام بأهمية القراءة، وأهمية الكتاب، ويعيد إلى الكتاب قيمته

ومكانته، ولا يترك الساحة للتلفزيون وحده لينفرد بتكوين العقول والاتجاهات لدى أجيال الشباب الجديدة.. والتلفزيون في النهاية وسيلة إعلام، ومتابعة للأحداث، وقد يكون وسيلة تسلية وقضاء وقت الفراغ، ولكنه ليس وسيلة تثقيف.. فالثقافة مصدرها الرئيسى هو الكتاب، وتأتى المصادر الأخرى فى مرتبة تالية.

فى اليابان ظهرت أخيرًا شكوى الآباء والمربين، والمسئولين عن رعاية الشباب فى الجامعات من مشكلة غريبة أصبحت تؤرق الجميع، فقد اكتشفوا أن طلبة الجامعات، وقد تجاوزوا مرحلة الطفولة بسنوات، يقبلون على قراءة مجلات مصورة من طراز «ميكى وبطوط» المخصصة للأطفال فى مراحل السن المبكرة، وهى مجلات تقدم قصصًا بسيطة وسطحية فى شكل «سيناريو» بالرسوم والألوان تصاحبها كلمات قليلة.. وليس فى هذه المجلات شىء يمكن اعتباره من الثقافة أو المعرفة أو يمثل إضافة فى التكوين العقلى والنفسى والروحى لهؤلاء الطلاب الكبار.. ومعنى ذلك أن الأجيال الجديدة مهددة بالسطحية، والجهل، والاكتفاء بوهم الثقافة.

وأجروا بحثًا واسعًا بين هؤلاء الطلاب كانت نتيجته أن التلفزيون هو السبب.. لأنه غرس فى هذا الجيل الارتباط بالصور والألوان والمشاهد الحسية المتتابعة، ولم يغرس فيهم التماس المعرفة بالقراءة، والارتباط بالكلمات المجردة التى تحرك العقل والوجدان دون الاعتماد على وسيلة حسية.. ودق رجال التربية فى اليابان أجراس الخطر، وحذروا من طغيان حضارة التلفزيون.. وهى حضارة صور زائلة.. لا يمكن استعادتها.. ولا التوقف لحظة للتفكير والهضم والاستيعاب.. ولا تؤدى إلى تكوين عقلى حقيقى.

ومثل هذه الفجوة بين الشباب وعدم القراءة حدثت فى مصر لفترة طويلة، بعد أن اعتاد الشباب تحصيل معلوماته بطريقة سلبية، بأن يجلس أمام

التلفزيون، ويترك نفسه وعقله لسيل الصور التى تتدفق ملونة ومبهرة، دون أن تدع له فرصة للتفكير، أو التحليل، أو التأمل، أو استنباط فكرة جديدة من الأفكار المطروحة أمامه كما يحدث عند قراءة كتاب جيد.

وكم شكونا من انصراف الشباب عن الثقافة الجادة. وأذكر أن الدكتور لويس عوض قاد حملة واسعة أثارت القلق على المستقبل العلمى والثقافى والحضارى لمصر ولسائر البلاد العربية، بسبب هذه الفجوة..

كما أذكر حملة أخرى قادها الدكتور يوسف إدريس بدأها بمقال شهير بعنوان «أهمية أن نتثقف ياناس»، قدم فيه تحليلاً لحالة التدهور الاجتماعى التى يمثل التدهور الثقافى أهم أسبابها، ويكشف فى هذا المقال الارتباط الحتمى بين تدهور الثقافة الجادة وتدهور المجتمع، وتساءل: لماذا كانت كلمة «مثقف» علامة على أن المواطن صاحب مقام رفيع، وكان ذلك يعكس احترام الثقافة والمثقفين كجزء لا يتجزأ من قيم الشعب المصرى، ثم انقلبت أمورنا فأصبحت كلمة «مثقف» تقال من باب «التريقة»؟.

وما يؤكد نظرة يوسف إدريس ما كشفت عنه نتائج اختبار المتقدمين لشغل وظائف المذيعين ومقدمى البرامج فى الإذاعة والتلفزيون، ووظائف السلك الدبلوماسى فى وزارة الخارجية، فقد كشفت إجاباتهم على أسئلة بسيطة عن جهل مخجل وعزلة عن مصادر الثقافة والمعرفة، ولم ينجح فى هذه الاختبارات أحد من آلاف المتقدمين من خريجى الجامعات..

ولو كنا أعطينا حديث يوسف إدريس ما يستحقه من الاهتمام لكنا قد غيرنا فى المناهج والأساليب، وفتحنا أمام الشباب مبكرًا أبواب الثقافة الحقيقية وهى القراءة..

وتحليل يوسف إدريس لانصراف الشباب عن الثقافة يبدأ من متابعة برنامج للمسابقات كان يقدمه التليفزيون للشباب على هيئة امتحان فى المعلومات، وفى

كل الحلقات كانت المعلومات العامة للمشتركين جميعًا تساوى صفرًا، ولا ينجحون إلا فى الإجابة على السؤال الخاص بالأمثلة الشعبية، ومعنى ذلك أنهم لا يقرءون، وإنما يتلقون المعرفة سماعًا، وربما من أمهاتهم وخالاتهم فقط..!

وإن كان يوسف إدريس قد انتهى فى تحليله لأسباب هذه الظاهرة الخطيرة إلى توجيه الاتهام إلى ثورة يوليو، رغم أنه من كبار المثقفين الذين ساندوا الثورة وأعطوها المضمون الفكرى.. ولكنه فيما يبدو اكتشف أن الثورة دفعت إلى الساحة جماهير غفيرة من الطبقة المتوسطة الصغيرة التى كانت تعيش على هامش الحياة، وفتحت الثورة لها أوسع المجالات، ولكن لم توفر لها ما يجعلها متحضرة منظمة، وكلما ارتفعت اقتصاديًا ارتفعت سلوكيًا وفكريًا وإنسانيًا.. فالثورة اهتمت بالتعليم ولم تهتم بالثقافة.. وتعليم بلا ثقافة لا يتعدى خلق كائنات ميكانيكية لا تجيد إلا صنعة أو حرفة.. فالتعليم تدريب على المهارات العقلية واليدوية، أما الثقافة فهى تدريب العقل نفسه، وبدونها يتحول الإنسان إلى حيوان آكل، شارب، نائم، متناسل، وبدون الثقافة للإنسان تصبح أية دابة أحسن منه، فهو دونا عن الدواب مزود بعقل لابد أن يعمل، وإذا لم يعمل فى اتجاه صالح فلابد أن يعمل فى اتجاه خاطئ وأحيانًا إجرامى..

ويوسف إدريس يرى أن ما نشكو منه من السلبية، والفوضى، وانعدام الضمير، وغياب القيم، والهرجلة، والارتجال، وبقية شكوانا الخاصة بالإنسان سببها أننا تحولنا إلى مجتمع جاهل - كما يقول - حتى وإن كان بعضه متعلمًا.. مجتمع غير واع أو مدرك.. أى غير مثقف.. مجتمع «همه على بطنه» ليست فيه صفوة قائدة مثقفة محترمة.

هذه الرؤيـــة مـع مـا فيـها مـن تحـامل وتشـاؤم ومبالغـة فإنـها فـى مجملـها صحيحة، وتنطبق على المرحلة التى كتب فيها يوسف إدريس مقالاته فى بدايـة الثمانينات، ولو امتد به العمر لرأى أن هناك أمورًا كثيرة قد تغيرت.. وأن هناك الكتب الجادة التى تطبع منها عشرات الآلاف من النسخ وتباع بثمـن زهيـد فـى مشروع القراءة للجميع، وتشارك فيــه دار المعـارف بمـا لديـها مـن ثـروة فكريـة وأدبية هى رصيد العمل الجاد طوال ١٠٨ أعوام..

ولكن رؤية يوسف إدريس الواضحـــة الشـجاعة تضـىء أمامنـا أضـواء صادقـة ومخلصة على الواقع بغير نفاق، والعودة إليها الآن تجعلنـا نـدرك إلى أى مـدى يمثل مشروع القراءة للجميـع مشـروعًا حضاريًّـا كبـيرًا يعيـد الثقافـة الجـادة إلى مكانها، ويحقق التوازن فى المجتمع بين التنمية الاقتصادية والتنميــة الثقافيـة، لكى لا تنشأ طبقة لديها الثروة دون أن يكون لديـها المحتـوى الروحـى الثقـافى والحضارى الذى يمنع تحولها إلى طبقــة مسـتغلة.. ولكـى تنشـأ أجيـال جديـدة تعرف قيمة القراءة، وتدرك أنها ليست ترفًـا أو تزجيـة لوقـت الفـراغ، ولكنـها ضرورة حياة ونمو للإنسان لا تقل أهمية عن الخبز والحرية.. ولكى نحقق هدفنا فى بناء جيل مـن المصريـين يعـايش العصـر ويرتبـط فـى نفس الوقـت بجـذوره الروحية والفكرية، ويمتلئ وجدانه بتراث الأمة وتاريخها العريـق الضـارب فـى القدم بكل مراحله، ويمتلك القدرة علـى التفكـير العلمـى والرؤيـة المستقبلية ولا يتوقـف عند الحاضر فقط، ولا يرتـد إلى الحيـاة فـى المـاضى الـذى انقضـى ولـن يعود، ولم يعد أمامنا إلا المستقبل.. ولابد من الاستعداد له قبل أن يـأتى ونحـن قاعدون..!

وللقراءة فى حياتى أثر كبير..

فقد بدأت القراءة مع الأيام الأولى التى تعلمت فيها التمييز بين الحروف، وكان الفضل فى ذلك لمدرستى التى قضيت فيها أجمل سنوات الطفولة، ولا أستطيع أن أنسى فضلها، ففى مدرسة الأقباط الابتدائية فى دمنهور كانت مكتبة المدرسة مفتوحة للأطفال ترحب بهم فى كل وقت، وكان أمين المكتبة أباً وموجهًا، وكانت فى جدول الدراسة حصة يومية للمطالعة الحرة ننتقل فيها إلى المكتبة ونقرأ القصص المشوقة، ونناقشها فى حصة التعبير مع أستاذ فاضل مازالت ذكراه ماثلة فى ذهنى رغم مرور عشرات السنين، مما يؤكد أن الفضل لا يضيع بين الله والناس..

وبعد ذلك انتقلت إلى مكتبة البلدية فى دمنهور وقرأت فيها عشرات الكتب، وتعرفت بانبهار على عالم سحرى فتحه أمامى طه حسين، والعقاد، وتوفيق الحكيم، ومحمود تيمور، وأحمد حسن الزيات، والدكتور محمد حسين هيكل، ويحيى حقى، والمازنى، والدكتور أحمد زكى، وشبلى شميل، ثم انتقلت إلى عالم ديستوفسكى، وتشيكوف، وآدم سميث، وماركس، وكينز، وفرويد، وكانط، وأفلاطون، وعشرات من أصحاب العقول المضيئة فى الأدب، والفلسفة، وعلم النفس، والإسلاميات، والاقتصاد، والسياسة..

وظل النهم للمعرفة يصاحبنى سنوات عمرى، فأسعد كلما وجدت كتاباً جديدًا، ولا أفرق بين القراءة فى علوم الطبيعة والطب والفلك وبين القراءة فى التاريخ والأدب والفلسفة، فقد تكوّن لدى يقين بأن التكوين الثقافى والعقلى السليم يجب أن يعتمد على كل ما يستطيع العقل أن يستوعبه من معرفة فى كل مجال..

ووجدت أن الاطلاع على علم يفيدنى فى فهم ما أقرؤه فى علم آخر، وآمنت بأن خير رفيق فى الزمان كتاب كما يقول الشاعر.. صداقة الكتاب تفيد وتدوم وعطاؤها يتجدد.. وصداقة الكتاب لا ترهق.. وتعطى للإنسان قيمة حقيقية..

وعندما يسألنى سائل عن أكبر دافع حفزنى إلى القراءة أجيب بلا تردد: هذا الكتاب الصغير الذى أصدرته دار المعارف منذ سنوات، ووقع فى يدى فكان له تأثير السحر، كما فعل مع مفتى جبل لبنان، ومع عشرات الآلاف من أبناء جيلى..

ولذلك رأيت أن تعيد دار المعارف طبع هذا الكتاب لتقدمه للشباب العربى آملاً أن يجدوا فيه ما وجده أبناء جيلى من متعة ودافع للقراءة والارتقاء بالفكر والسلوك.

رجب البنا



الدكتور حسين كامل بهاء الدين

بساط الريح السحرى

كانت القراءة والكتابة أداة الاتصال الأولى بين البشر وكانت جسرًا للتواصل بين الأجيال وعبر المسافات والأزمنة.

كانت القراءة أقوى وسائل التعليم والتعلم على مر العصور وكانت مصدر نور وإشعاع للبشرية كلها لملايين من البشر.

لولا القراءة والكتابة ما كان التاريخ، ولولا هذه الشفرة السحرية المبسطة لما كان التقدم ولا كانت المدنية.

لقد كانت القراءة بنكًا ورصيدًا للخبرة الإنسانية، ومستودعًا لذكريات ملايين من البشر ملئوا الدنيا نشاطًا وحركة، كانت أحاديثهم وضجيجهم، وأفراحهم وأحزانهم ملء السمع والبصر، كانوا بشرًا مثلنا، أزواجًا وزوجات، أطفالاً وشيوخًا، وكانت لهم حياتهم بما فيها من كد وعمل وما يتخللها من فرح وشقاء، فلقد مشوا على هذه الأرض وبنوا وعمروا، وأحيانًا دمروا، ثم انقطعت أخبارهم ولولا الكتابة والقراءة لكانت حياتهم سرابًا معدومًا وكانت ذكراهم نسيًا منسيًا.

كانت القراءة خبرة متراكمة على مر الأجيال تقدمت بها البشرية وتنورت بها الإنسانية، وتواصلت بها قدرات البشر على مر العصور من جيل إلى جيل.

القراءة كانت بالنسبة لى بساط الريح الذى نقلنى فى رحلات بعيدة، عبر المسافات الشاسعة وعبر الزمان.

كانت القراءة آلة سحرية للزمن استطاعت أن تعيدنى فى لمح البصر إلى عصور غابرة وإلى حضارات مندثرة وإلى بشر عاشوا على هذه الأرض من مئات وآلاف

وملايين السنين ولم يكن لى ولا لغيرى أن يتعرف عليهم ويتواصل معـهم ويلمس مشاعرهم وآمالهم لولا هذه الأداة الساحرة «القراءة».

كما كسرت القراءة حاجز الواقع فعرفتنى بأشخاص وشخصيات مـن إبداع أدبـاء وشـعراء صنعـوا مـن خيـالهم شـخصيات عجيبـة، تجسـد معـانى وقيمًـا وسلوكيات فريدة داعبت خيالى وألهبت عواطفى وشرحت لى نفسيات ومواقـف، وصورت لى أبطالاً وشياطين.

ونقلتنى آلة الزمن المبسـطة إلى كواكـب أخـرى وكسـرت حـاجز الرؤيـة بـين الواقع والخيال. كانت بالنسبة لى فى مرحلة الطفولة الفانوس السحرى العجيب والسينما الرائعة وعالم الحقيقة الاعتبارية المبهر الذى نقلنـى إلى مجـالات رائعـة وخيال بعيد.

ولقد كانت القراءة فى مرحلة الصبا والشباب الصديق الذى حنكته التجارب، والحكيم الذى صقلته الأيام، والعالم الذى يعطى تلاميذه عن سعة وبلا مقابل.

وكانت الانطباعات التى أكتبـها فـى مذكراتـى زادًا للحكمة والموعظـة حـين قرأتها بعد ذلك.

واستمرت القراءة فى مرحلة المراهقة، دليلاً للإيمـان والإلهـام ومصـدرًا للمثـل العليا والأخلاق الحميدة.

فلقد كان القرآن الكريم وكانت حياة محمد وعبقريـات العقـاد زادًا لا ينضـب وسياجًا منيعًا ضد مخاطر هذه المرحلة الحرجة وفى وجه رفقاء السوء.

وبذلك كـان الكتـاب صديقًـا حميمًـا خـلال مراحـل العمـر المختلفـة أعطـانى خلاصة التجربة التى كنت فى أشد الحاجة إليـها فـى مرحلـة الصبـا والشـباب فاستفدت من حكمة المجربين وتجنبت أخطاء الآخرين.

وكانت القراءة لقاءً حميمًا مع فئات من البشر لم أرهم إلا بعيون الحروف والكلمات، فرحت لأفراحهم ودمعت عيناى أحيانًا لأحزانهم، أحسست بمشاعر نبضت بها قلوب كثيرة واستغرقت أعوامًا طويلة.

وأعطتنى القراءة فرصًا لا تعوض لاستكشاف مجالات متعددة.. حلقت بى إلى آفاق بعيدة وغاصت بى إلى أعماق سحيقة إلى قاع البحار العميقة، إلى باطن الأرض المنصهر، إلى حفريات ترجع إلى ملايين السنين.

كما كسرت حاجز الزمن ومرت أمامى مواكب التاريخ المهيبة بعظمائها وأبطالها، إذ قدمت إلىَّ عظماء ملئوا الدنيا بريقًا يومًا من الأيام، فسمعت أحاديثهم وسبرت أغوارهم واطلعت على أدق مشاعرهم، وفرحت مع أفراح التاريخ المهيبة، وحزنت مع مآسى العصور الغابرة.

ولقد أحسست بمرارة الظلم الذى تعرض له أبطال وشهداء فكرهت الظلم، وهالنى جبروت بعض الطغاة فلم أطق القسوة. كما شاهدت النفوس الكبار التى تترفع عن الصغائر وتعفو عند المقدرة، وترد الإساءة بالإحسان، فتعلمت من القراءة التسامح والصفاء.

كانت القراءة بالنسبة لى معينًا لا ينضب للثقافة العامة، شدتنى إلى مجالات الحياة المختلفة، وعَوَّدتنى على الاهتمام بالآخرين، فكان كتاب ديل كارنيجى «كيف تكسب الأصدقاء» درسًا لى فى الاهتمام بالآخرين، ومحاولة إسعاد من حولى من معارف وأصدقاء.

وكان كتابه «دَعِ القلقَ وابدأ الحياة» علاجًا نفسيًّا علمنى كيف أواجه الأزمات.

وكانت قصة «شوجن» لجيمس كلافل درسًا لى فى الصبر وضبط النفس، مجسدًا فى بطل القصة تورواناجا الساموراى اليابانى الذى عاش فى القرن السادس عشر.

وكان كتاب «وحدة المعرفة» لكامل حسين درسًا فى تكامل المعرفة والتقاء الثقافات.

وكانت كتب الخيال العلمى تجربة فى كسر الجمود وممارسة مسئولة للحلم والخيال.

وكان تاريخ الاكتشافات العلمية وأبطالها العظام درسًا فى الصبر والجدية، والتأمل ودقة الملاحظة.

سيظل الكتاب دومًا الصديق الذى لا يضيقُ بك ولا يتخلّى عنك مهما فعل الآخرون.

سيظل الكتاب المعلم الصبور الذى يعطيك من علمه، ولا يملُّ من تكرار ما يعرضه عليك.

ستظل القراءة شريط الذكريات الذي تسترجع منه عبرات من تجارب الماضى وغيره، وعظات مشوار الحياة ودروسه.

سيظل الكتاب آلة الزمن السحرية وسفينة الفضاء الخارقة.

ستظل القراءة الرباط السحرى الذى يجمع البشر من كل البلاد والعصور ومن مختلف الأزمان.

ستظل القراءة طاقة هائلة للتعلم والثقافة والتواصل والتقدم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَنُقْرِئُكَ فلا تنْسَى، إلاَّ ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى، ونُيَسِّرُكَ لليُسْرَى، فَذَكِّرْ إن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ . [سورة الأعلى من الآية ٦ إلى الآية ٩.]

«صدق الله العظيم»

دكتور حسين كامل بهاء الدين

منى إليك..

الكلمة المكتوبة حرية والتزام

إن بينك وبيني ميثاقاً فيه حرية وفيه التزام . أما الحرية فللكلمة المكتوبة التى أنشرها : لى فيها حرية التأليف والترجمة ، حرية الاختيار والتوجيه ، حرية النقد ، حرية الإخراج . . وأخيراً حرية التوزيع . وأما الالتزام فهو أن أبحث عن الحقيقة فيما أكتب ، وأن أنشد الحق فيما أدعو له ، مع احترام حرية الآخرين فى الرد .

حرية والتزام . . حق وواجب . . تفاهمت عليهما معك ، وعملت بهما معاً أكثر من ثلاثة أرباع قرن ، فمنحتنى من ثقتك وإقبالك ما أقام لى هذا البناء الضخم الذى يشرف على النيل الأعظم فى وسط القاهرة ، ويغذى مكتبات العالم العربى بألوف من كتب العلم والثقافة .

وأنا أعرف أن العلم لا وطن له ، فتفتيت الذرة ، واختراع الصواريخ ، واكتشاف الدواء ، كلها ملك للبشرية . ولذلك عملت بالتأليف والترجمة على أن أنقل العلم لوطنى من الغرب إلى الشرق ، وأن أنقله عنه إلى الأوطان الأخرى . وأنا أعرف أيضاً أن الثقافة تصدر عن العقل والضمير ، فهى عصبية وإن لم تكن متعصبة ، ولذلك أسهمت فى نشر ثقافتنا العربية

ممثلة فى ذخائر العرب ومؤلفات القادة من الفكر المعاصر .

ومعى قامت دار المعارف لبنان (ش . م . ل) فى وسط بيروت فأدت واجبها فى توزيع الكتاب العربى من المحيط إلى الخليج ،وفى استيراد أحدث الكتب العلمية من أوربا وأمريكا ، فأدى تضامن الدارين إلى هذا النجاح الذى ندين به لك .

وقد افتتحنا منذ أيام فى قلب القاهرة مكتبة حديثة كبرى نضمها إلى مكتباتنا السبع فى القاهرة والإسكندرية وأسيوط لتعمل جميعاً على السمو بعرض الكتاب ، وحسن تقديمه للقارئ .

واليوم تقدم لك فى هذا الكتاب فصولاً عن القراءة كتبها من أجلك صفوة من القارئين والمفكرين ، تحمل عصارات من انطباعاتهم وخبراتهم ، وتهيئ لك فرصة أحسن ، لإنفاق وقتك فى قراءة أنفع .

إننى أهدى هذا الكتاب إليك ، وأرجو أن يبقى فى مكتبتك — بعد أن تقرأه — دليلا على حبك للقراءة ، وشاهداً على أن دار المعارف تتقيد فى التعامل معك بمبدأ الحرية والالتزام .

دار المعارف بمصر

الأستاذ عارف يقول :

نحن نقرأ لنعرف

كيف تعرف إذا لم تقرأ ؟ إن المطبعة أم المعرفة : لها ثمانية وعشرون جندياً هم حروف من الرصاص ، تنفذ إلى المعانى ، فتفتح مغاليق الجهالة . وهذه الحروف تذوب فى كتاب ، ثم ترسل إشعاعها عن طريق العين إلى العقل والقلب ، فإذا الإشعاع نور الدنيا ولألاء الحضارات .



الدكتور طه حسين

زاد الشعب



هو القراءة يقبل عليها ويشبع بها جوعه إلى العلم والمعرفة وألوان الحضارة . إن الحث على القراءة خير ما يوجه إلى الأفراد والجماعات ، فى جميع الأمم والشعوب ، وفى الشعوب العربية بوجه خاص ، بل هو خير ما وجه إلى الإنسان منذ تحضر إلى الآن .

ولقد بدئ تنزيل القرآن بفعل قصير خطير هو كلمة «اقرأ» ؛ فكان أول ما خوطب به النبى — صلى الله عليه وسلم — وخوطب به الناس من بعده ، هو هذا الأمر الكريم بالقراءة .

وكان صاحب المنطق — كما يسميه الجاحظ — يقول إن الإنسان حيوان ناطق ، وكان النطق عنده فيما يحدثنا الفلاسفة أشمل من إدارة اللسان فى الفم باللفظ الذى يبلغ السمع ، فينقل إليك ما فى نفس محدثك. كان النطق عند أرسطاطاليس يدل على التفكير والتعبير جميعاً ، لكن

أرسطاطاليس لم يعرّف الإنسان بأنه حيوان ناطق فحسب ، وإنما وصفه بأنه مدنى بالطبع ، كما ترجم القدماء ، أو أنه اجتماعى بالطبع ، كما يترجم المحدثون .

وما نعرف شيئاً يحقق للإنسان تفكيره وتعبيره ومدنيته ، كالقراءة ، فهى تصور التفكير على أنه أصل لكل ما يقرأ ، وعلى أنه غاية لكل ما يقرأ . فالكاتب يفكر قبل أن يكتب ، وأثناء كتابته ؛ والقارئ يفكر فيما يقرأ أثناء قراءته ، وبعد أن يقرأ .

وكذلك يمضى الإنسان فى تحقيق هاتين الخصلتين اللتين تميزانه وتضعانه حيث أراد الله له أن يكون من التفوق والرقى ، وهما العقل والمدنية . فإذا أمر الله الإنسان بأن يقرأ ، فإنما يأمره بأن يطمح إلى الكمال ، ويسعى إليه . وإذا كانت القراءة أخص مميزات الحضارة ، تكثر وتنتشر إذا اتسعت الحضارة وارتقت ، وتقل وتتضاءل إذا ضاقت الحضارة وانحطت ، فقد يكون من أيسر التعبير وأوجزه فى يوم من الأيام أن تختصر الطريق ، وأن يعرف الإنسان بأنه حيوان قارئ دون أن يكون فى هذا التعريف تجاوز لما قصد إليه أرسطاطاليس .

وكانت القراءة فى أول أمر الإنسان مقصورة على قلة ضئيلة من الناس فى كل شعب من الشعوب المتحضرة ، وكان رقى الحضارة واتساعها يدعوان إلى شيوع القراءة وانتشارها ، حتى كان هذا العصر الحديث ، وحتى كانت الديمقراطية التى أخذت تلغى الفروق والامتيازات وتقرب ما بين الطبقات .

وإذا القراءة تصبح حقًّا شائعاً لكل إنسان بل واجباً محتوماً على كل إنسان يريد أن يحيا حياة صالحة . وإذا الدول تشعر بهذا الحق وتفرض على نفسها أو تفرض عليها الشعوب تعليم القراءة لكل فرد من الناس دون أن تتقاضى على ذلك منه أجراً . ونحن نعلم أن الدول إنما تعلم أبناء الشعب هذه القراءة الآلية وقليلاً جدًّا مما يهيئهم للقراءة التى ترقى العقل ، وتنقى الطبع ، وتصفى الذوق ؛ ولكن القراءة على كل حال هى الطريق الطبيعية الميسرة لرقى العقل ، والطبع ، والخلق ، والذوق . وحينما انتشرت القراءة طلب الناس ما يقرءون ، وتنافس الممتازون منهم فى أن يقدموا إليهم ما يقرءون ، ونشأ عن هذا كله ما نعرفه من قوة الحياة العقلية ، وخصبها ، وما ينشأ عنها من نتائج لا تحصى فى حياة الناس ، وقد أخذت الدولة فى الشرق تعلم الناس القراءة ، وأخذ الناس يطلبون ما يقرءون ، وأخذ الكتاب يتنافسون فى أن يقدموا إليهم ما يقرءون .

ولكن الإنسان كسل بطبعه أيضاً ؛ فهو مشوق بطبعه إلى الرقى ، ولكنه مدفوع بطبعه إلى حب اليسر ، وإيثار السهولة ، وتجنب الجهد الشاق ما وجد إلى ذلك سبيلا ؛ وهو محب للقراءة ما فى ذلك شك ، ولكنه يريد أن تيسر له هذه القراءة ، ووجوه التيسير كثيرة مختلفة ، أخطرها وأعظمها ضرراً هو الذى يشيع وينتشر ، مع الأسف الشديد ، فالكلام السهل اليسير المبتذل القريب الذى ينتشر فى الصحف السيارة التى يكفى الإنسان أن يمد يده ليتناولها ، وفى الكتب الرخيصة التى يحصلها

القارئ دون أن يشق على ماله ويقرؤها دون أن يشق على عقله — هذا الكلام هو الذى يتهافت عليه القارئ بحكم هذه الخصلة الطبيعية فى تكوينه، وهى خصلة الكسل ، وإيثار الهين من الأمور ، فلا بد إذن من أن تقاوم هذه الخصلة ما استطاع المثقفون مقاومتها ، ولا بد من أن تقرب القراءة الممتعة الخصبة إلى الناس حتى يستطيعوا أن يقرءوا فى غير مشقة على عقولهم ولا على أموالهم .

وليس كل ما ينتجه العقل الإنسانى ميسر القراءة للناس ، فهناك الممتازون فى الثقافة ، ولكن هناك أصحاب الثقافة المتوسطة وأصحاب الثقافة المتواضعة . وليس من اليسير أن يسيغ أولئك وهؤلاء ما يكتبه الممتازون من الفلاسفة والعلماء والأدباء . وليس من الحق ولا من العدل أن يحرم أولئك وهؤلاء خير ما يثمره العقل الإنسانى من الإنتاج . فلا بد إذن من أن يأخذوا منه بحظ ما ، لا بد من أن يرتفعوا إليه شيئاً ومن أن يهبط هو إليهم شيئاً ، حتى يكون هذا اللقاء الخصب الذى يعم به نفع العلم والفلسفة والأدب .

وكل هذه الملاحظات دعت أصحاب الرأى إلى التفكير فى إنشاء سلاسل من الكتب القصيرة اليسيرة الرخيصة التى يسهل شراؤها وتهون قراءتها ويقرب الانتفاع بها والاستمتاع بما فيها ولا يشق ثمنها على أوساط الناس ولا على فقرائهم .

فمثل تلك السلاسل جهد من الجهود التى تبذل فى سبيل نشر الثقافة وترقية الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات وهى نتيجة طبيعية لهذا

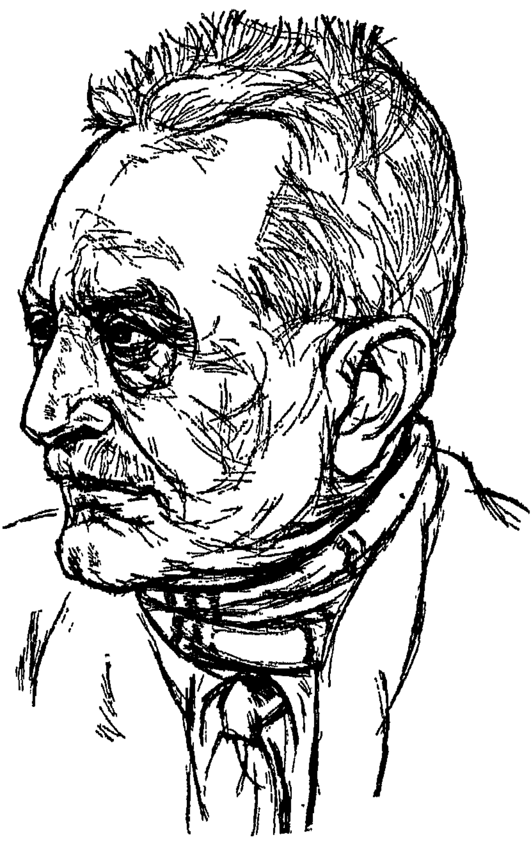
الطور الذى نحن فيه من أطوار حياتنا . وفى الأرض أمم سبقتنا فى هذا العصر الحديث إلى الرقى وقطعت فيه أشواطاً لم نقطعها بعد وهى مع ذلك بل من أجل ذلك تنشئ أمثال تلك السلاسل وتبذل فى إنشائها وإذاعتها وتيسيرها جهوداً عظيمة موفقة . فكيف بنا وحاجتنا إلى هذا التيسير أشد من حاجتها ، وضرورات الحياة الحديثة تفرض علينا أن نقطع أبعد الآماد إلى الرقى فى أقصر الأوقات لنستدرك ما فاتنا ولنبلغ حقنا من المساواة بيننا وبين الشعوب المتفوقة .

والنية فى تلك السلاسل أن تكون على يسرها وقربها متنوعة أشد التنوع وأنفعه . فهى تنشر المؤلفات الحديثة كما تنشر الآثار القديمة ، وهى تنشر الآثار التى تؤلف كما تنشر الآثار التى تترجم ، وهى تنشر من هذا كله فى كل فرع ممكن من فروع الإنتاج العقلى : فى الأدب الإنشائى وفى الأدب الوصفى ، فى العلم الخالص وفى العلم التطبيقى ، فى السياسة ، فى التاريخ ، فى العمران والاجتماع ، فى كل لون من ألوان هذا النشاط الذى يجعل العقل الإنسانى منتجاً فى جميع فنون المعرفة ، ذلك لأن الذين يعنون بإنشاء هذه السلاسل ونشرها لا يفكرون إلا فى شىء واحد هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب وأن ينتفعوا وأن تدعوهم هذه القراءه إلى الاستزادة من الثقافة والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى يحيونها .

طه حسين

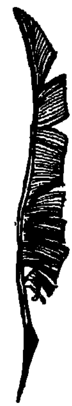
للمسرحية عندى اعتبار خاص ، ذلك لأن الحوار – بما فيه من إيجاز وتركيز – هو القالب الأدبى القريب إلى سليقتى المحبة للنظام ، فالفن عندى نظام ، والنظام عندى هو الاقتصاد ، أى البيان بلا زيادة ولا نقصان ! . . . ربما كانت هذه الطبيعة عندى ميراثاً قديماً ، من أثر رواسب شخصيتنا العتيقة ، فالعرب كانوا يرون البلاغة فى الإيجاز ، ومصر القديمة كانت ترى البراعة الفنية فى البناء والتركيز ؛ فالهياكل الكبرى آية من آيات التصميم الهندسى الدقيق ، والتماثيل العظيمة آية من آيات التفكير المركز ببساطة فى الحجر المجرد ! . . . من كل ذلك عنيت دائماً بقراءة أعلام الأدب المسرحى ، لا قراءة متعة ولذة واستطلاع فقط ، بل قراءة درس وتأمل وفحص ، فكنت أقضى الساعات أمام نص من النصوص ، أقلب فيه منقباً عن أسرار تأليفه ومفاتيح تركيبه ، مستخلصاً – بنفسى ولنفسى – ملاحظاتى فى طرائق التأليف المسرحى ، ذلك الفن العسير ، الذى أحببته أيضاً لأنه عسير ، فما أزهد فى شىء – زهدى فى الفن السهل الذى لا يحتاج إلى مؤونة وتجربة وغوص ودرس ؛ وما أبجل شيئاً – تبجيلى للفن الذى يصمد ، كالصخرة فى طريق الفنان ، فما يزال به يعالجه : بالصبر الطويل والكد المضنى ، حتى يفجر منه الماء السلسبيل ! . . .

توفيق الحكيم



عباس محمود العقاد

لماذا هويت القراءة ؟



أول ما يخطر على البال — حين يوجه هذا السؤال إلى أحد مشتغل بالكتابة — أنه سيقول : إننى أهوى القراءة لأننى أهوى الكتابة !

ولكن الواقع أن الذى يقرأ ليكتب وكفى هو « موصل رسائل » ليس إلا . . أو هو كاتب « بالتبعية » وليس كاتباً بالأصالة . فلو لم يسبقه كتاب آخرون لما كان كاتباً على الإطلاق ، ولو لم يكن أحد قبله قد قال شيئاً لما كان عنده شىء يقوله للقراء

وأنا أعلم فيما أعهده من تجاربى أنى قد أقرأ كتباً كثيرة لا أقصد الكتابة فى موضوعاتها على الإطلاق ، وأذكر من ذلك أن أديباً زارنى فوجد على مكتبى بعض المجلدات فى غرائز الحشرات ، فقال مستغرباً : وما لك أنت وللحشرات ؟ .. إنك تكتب فى الأدب وما إليه ، فأية علاقة

للحشرات بالشعر والنقد والاجتماع ؟

ولو شئت لأطلت فى جوابه . ولكننى أردت أن أقتضب الكلام بفكاهة تبدو كأنها جواب وليس فيها جواب .

فقلت : نسيت أننى أكتب أيضاً فى السياسة !

قال نعم : نسيت ، والحق معك !.. فما يستغنى عن العلم بطبائع الحشرات رجل يكتب عن السياسة والسياسيين فى هذه الأيام !

والحقيقة كما قلت مراراً أن الأحياء الدنيا هى « مسودات » الخلق التى تتراءى فيها نيات الخالق كما تتراءى فى النسخة المنقحة ، وقد تظهر من « المسودة » أكثر ما تظهر بعد التنقيح . فإذا اطلع القارئ على كتاب فى الحشرات ، فليس من اللازم اللازب أن يطلع عليه ليكتب فى موضوعه ، ولكنه يطلع عليه لينفذ إلى بواطن الطبائع وأصولها الأولى ، ويعرف من ثم كيف نشأ هذا الإحساس أو ذاك الإحساس ، فيتقرب بذلك من صدق الحس وصدق التعبير ، ولو فى غير هذا الموضوع .

كذلك لا أحب أن أجيب عن السؤال كما أجاب قارئ التاريخ فى البيت المشهور :

ومن وعى التاريخ فى صدره   أضاف أعماراً إلى عمره

فليست إضافة أعمار إلى العمر بالشيء المهم إلا على اعتبار واحد ، وهو أن يكون العمر المضاف مقداراً من الحياة لا مقداراً من السنين ، أو مقداراً من مادة الحس والفكر والخيال ، لا مقداراً من أخبار الوقائع

وعدد السنين التي وقعت فيها . فإن ساعة من الحس والفكر والخيال تساوى مائة سنة أو مئات من السنين ، ليس فيها إلا أنها شريط تسجيل لطائفة من الأخبار وطائفة من الأرقام .

* * *

كلا . . لست أهوى القراءة لأكتب ، ولا أهوى القراءة لأزداد عمراً فى تقدير الحساب . .

وإنما أهوى القراءة لأن عندى حياة واحدة فى هذه الدنيا ، وحياة واحدة لا تكفينى ، ولا تحرك كل ما فى ضميرى من بواعث الحركة

والقراءة دون غيرها هى التى تعطينى أكثر من حياة واحدة فى مدى عمر الإنسان الواحد ، لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق ، وإن كانت لا تطيلها بمقادير الحساب . .

فكرتك أنت فكرة واحدة . .

شعورك أنت شعور واحد . .

خيالك أنت خيال فرد إذا قصرته عليك . .

ولكنك إذا لاقيت بفكرتك فكرة أخرى ، أو لاقيت بشعورك شعوراً آخر ، أو لاقيت بخيالك خيال غيرك .. فليس قصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين ، أو أن الشعور يصبح شعورين ، أو أن الخيال يصبح خيالين ..

كلا . . وإنما تصبح الفكرة بهذا التلاقى مئات من الفكر فى القوة والعمق والامتداد .

والمثل على ذلك ، محسوس فى عالم الحس والمشاهدة ، ومحسوس فى عالم العطف والشعور .

ففى عالم المشاهدة يجلس المرء بين مرآتين فلا يرى إنساناً واحداً أو إنسانين اثنين ، ولكنه يرى عشرات متلاحقين فى نظره إلى غاية ما يبلغه النظر فى كل اتجاه .

وفى عالم العطف والشعور نبحث عن أقوى عاطفة تحتويها نفس الإنسان فإذا هى عاطفة الحب المتبادل بين قلبين . . لماذا ؟ . . لأنهما لا يحسّان بالشىء الواحد كما يحسّ به سائر الناس . .

لا يحسّان به شيئاً ولا شيئين ، وإنما يحسّان به أضعافاً مضاعفة لا تزال تتجاوب وتنمو مع التجاوب إلى غاية ما تتسع له نفوس الأحياء

هكذا يصنع التقاء مرآتين ، وهكذا يصنع التقاء قلبين . . فكيف بالتقاء العشرات من المرائى النفسية فى نطاق واحد ؟

وكيف بالتقاء العشرات من الضمائر والأفكار ؟

إن الفكرة الواحدة جدول منفصل .

أما الأفكار المتلاقية فهى المحيط الذى تتجمع فيه الجداول جميعاً ، والفرق بينها وبين الفكرة المنفصلة كالفرق بين الأفق الواسع والتيار الجارف وبين الشط الضيق والموج المحصور .

وقد تختلف الموضوعات ظاهراً أو على حسب العناوين المصطلح عليها ، ولكنك إذا رددتها إلى هذا الأصل كان أبعد الموضوعات كأقرب

الموضوعات من وراء العناوين .

أين غرائز الحشرات مثلا من فلسفة الأديان ؟

وأين فلسفة الأديان من قصيدة غزل وقصيدة هجاء ؟

وأين هذه القصيدة أو تلك من تاريخ نهضة أو ثورة ؟

وأين ترجمة فرد من تاريخ أمة ؟

ظاهر الأمر أنها موضوعات تفترق فيما بينها افتراق الشرق من الغرب والشمال من الجنوب .

وحقيقة الأمر أنها كلها مادة حياة ، وكلها جداول تنبثق من ينبوع واحد وتعود إليه .

غرائز الحشرات بحث في أوائل الحياة .

وفلسفة الأديان بحث في الحياة الخالدة الأبدية .

وقصيدة الغزل أو قصيدة الهجاء قبسان من حياة إنسان في حالي الحب والنقمة . .

ونهضة الأمم أو ثورتها هما جيشان الحياة في نفوس الملايين ، وسيرة الفرد العظيم معرض لحياة إنسان ممتاز بين سائر الناس .

وكلها أمواج تتلاقى في بحر واحد ، وتخرج بنا من الجداول إلى المحيط الكبير . .

ولم أكن أعرف حين هويت القراءة أنني أبحث عن هذا كله ، أو أن هذه الهواية تصدر من هذه الرغبة .

ولكنني هويتها ونظرت فى موضوعات ما أقرأ فلم أجد بينها من صلة غير هذه الصلة الجامعة ، وهى التى تتقارب بها القراءة عن فراشة ، والقراءة عن المعرى وشكسبير .

لا أحب الكتب لأنى زاهد فى الحياة .

ولكنى أحب الكتب لأن حياة واحدة لا تكفينى . . ومهما يأكل الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة ، ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسد واحد ، ومهما يتنقل فى البلاد فإنه لن يستطيع أن يحل فى مكانين . ولكنه بزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوات فى عمر واحد ، ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل ، وتتضاعف الصورة بين مرآتين .

* * *

والكتب المفضلة عندى هى كتب فلسفة الدين ، وكتب التاريخ الطبيعى ، وتراجم العظماء ، وكتب الشعر .

إنى أقرأ هذه الكتب وأعتقد أن العلاقة بينها متينة ، وإن كانت تفترق فى الظاهر ، لأنها ترجع إلى توسيع أفق الحياة أمام الإنسان . فكتب فلسفة الدين تبين إلى أى حد تمتد الحياة قبل الولادة وبعد الموت ، وكتب التاريخ الطبيعى تبحث فى أشكال الحياة المختلفة وأنواعها المتعددة ، وتراجم العظماء معرض لأصناف عالية من الحياة القوية البارزة ، والشعر هو ترجمان العواطف ، فإننى أفضل من الكتب كل ماله مساس بسر الحياة .

* * *

وتسألني ما هو سر الحياة ، فأقول على الإجمال إنني أعتقد أن الحياة أعم من الكون، وأن ما يرى جامداً من هذه الأكوان أو مجرداً من الحياة إن هو فى نظرى إلا أداة لإظهار الحياة فى لون من الألوان أو قوة من القوى. والحياة شيء دائم أبدى أزلى ، لا بداية له ولا نهاية . .

فإذا كنت تستطيع أن تعرف سر الله عرفت سر الحياة ، ولكننا مطالبون بأن نحفظ لأنفسنا فى هذا المحيط الذى لا نهاية له أوسع دائرة يمتد إليها شعورنا وإدراكنا . والكتب هى وسائل الوصول إلى هذه الغاية . وهى النوافذ التى تطل على حقائق الحياة ، ولا تغنى النوافذ عن النظر .

ومن جهة أخرى فإن الكتب طعام الفكر ، وتوجد أطعمة لكل فكر كما توجد أطعمة لكل بنية ، ومن مزايا البنية القوية أنها تستخرج الغذاء لنفسها من كل طعام . وكذلك الإدراك القوى يستطيع أن يجد غذاء فكرياً فى كل موضوع . وعندى أن التحديد فى اختيار الكتب إنما هو كالتحديد فى اختيار الطعام . وكلاهما لا يكون إلا لطفل فى هذا الباب أو مريض ، فاقرأ ما شئت تستفد إذا كان لك فكر قادر أو معدة عقلية تستطيع أن تهضم ما يلقى فيها من الموضوعات ، وإلا فاجعل القابلية حكماً لك فيما تختار لأن الجسم فى الغالب يغذيه ما نشتهيه .

ولا تغنى الكتب عن تجارب الحياة ، ولا تغنى التجارب عن الكتب ، لأننا نحتاج إلى قسط من التجربة لكى نفهم حق الفهم ، أما أن التجارب

لا تغنى عن الكتب ، فذلك لأن الكتب هى تجارب آلاف من السنين فى مختلف الأمم والعصور ، ولا يمكن أن تبلغ تجربة الفرد الواحد أكثر من عشرات السنين . .

* * *

ولا أظن أن هناك كتباً مكررة لأخرى ، لأنى أعتقد أن الفكرة الواحدة إذا تناولها ألف كاتب أصبحت ألف فكرة ، ولم تعد فكرة واحدة . . ولهذا أتعمد أن أقرأ فى الموضوع الواحد أقوال كتاب عديدين ، وأشعر أن هذا أمتع وأنفع من قراءة الموضوعات المتعددة . فمثلا أقرأ فى حياة نابليون أكثر من أقوال ثلاثين كاتباً وأنا واثق من أن كل نابليون من هؤلاء هو غير نابليون الذى وصف فى كتب الآخرين .

أما تأثير كل من أنواع الكتب الثلاثة : العلمية ، والأدبية ، والفلسفية ، فهو أن الكتب العلمية تعلمنا الضبط والدقة ، وتفيدنا المعارف المحدودة التى يشترك فيها جميع الناس ، والكتب الأدبية توسع دائرة العطف والشعور ، وتكشف لنا عن الحياة والجمال ، والكتب الفلسفية تنبه البصيرة وملكة الاستقصاء وتتعدى بالقارئ من المعلوم إلى المجهول ، وتنتقل به من الفروع إلى الأصول .

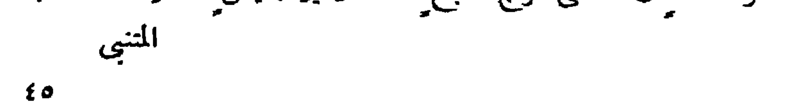
وكل من هذه الأنواع لازم لتثقيف الإنسان ، وتعريفه جوانب هذا العالم الذى يعيش فيه . وأنا أفضلها على هذا الترتيب : الأدبية ، فالفلسفية ، فالعلمية .

ولا يستطيع القارئ أن يحصر مقدار الفائدة التي يجنيها من كتاب، فرب كتاب يجتهد في قراءته كل الاجتهاد، ثم لا يخرج منه بطائل؛ ورب كتاب يتصفحه تصفحاً، ثم يترك في نفسه أثراً عميقاً يظهر في كل رأي من آرائه، وكل اتجاه من اتجاهات ذهنه، فأنت لا تعرف حق المعرفة «الطريقة» التي تضمن الفائدة التامة من قراءة الكتب، ولكن لعل أفضل ما يشار به — على الإجمال — هو ألا تكره نفسك على القراءة، وأن تدع الكتاب في اللحظة التي تشعر فيها بالفتور والاستثقال.

* * *

أما مقياس الكتاب المفيد فإنك تتبينه من كل ما يزيد معرفتك وقوتك على الإدراك والعمل وتذوق الحياة فإذا وجدت ذلك في كتاب ما، كان جديراً بالعناية والتقدير، فإننا لا نعرف إلا لنعمل أو لنشعر، أما المعرفة التي لا عمل وراءها ولا شعور فيها فخير منها عدمها. وعلى هذا المقياس تستطيع أن تفرق بين ما يصلح للثقافة والتهذيب وما لا يصلح.

عباس محمود العقاد



أعزّ مكانٍ في الدُّنَى سرْجُ سابحٍ وخير جليسٍ في الزمان كتابُ

المتنبي

أنا من بدّلَ بالكتْبِ الصِّحابا   لم أجدْ لى وافيًا إلا الكتابا
صاحبٌ إن عبته أولم تعبْ   ليس بالواجدِ للصّاحبِ عابا
كلمـــا أخْلقتُـــه جدّدنى   وكسانى من حُلى الفضلِ ثيابا
صحبةٌ لم أشْكُ منها ريبةً   ووِدادٌ لم يكلفنى عتابا
رُبّ ليلٍ لم نقصّر فيه من   سَمَرٍ طالَ على الصمتِ وطابا
كان من همّ نهارى راحتى   ونداماىَ ونَقْلى والشرابا
إن يجدنى يتحدّثْ أو يجدْ   مللاً يطوى الأحاديثَ اقتضابا
تجد الكتْبَ على النقدِ كما   تجد الإخوانَ صدْقاً وكذابا
فتخيّرهـــا كمـــا تختارهُ   وادّخرْ فى الصّحْبِ والكتْبِ اللبابا
صالحُ الإخوان يبغيكَ التقى   ورشيدُ الكتْبِ يبغيكَ الصوابا

شوقى

* * *

لما أنشئت المكتبة الأولى فى مصر وضعت تحت حماية الآلهة وكتب على بابها : « هنا غذاء النفوس وطب العقول » .



الدكتور حسين فوزى



القراءة فن

تنويعات على موضوع ملغز

تصور أن يدلى إليك أصدقاء برغبة أن تكتب عن القراءة كفن . فتخلو إلى نفسك لتفكر فيما تكتب .

ولقد فكرت فلم تتزاحم الأفكار ، ولكنها تداعت ، فكرة تستحضر فكرة ، ورأى ينقض رأياً .

كيف تكون القراءة فنًّا ، والقراءة وسيلة إلى غاية ، هى الفهم فالانفعال ، أو هى الدرس فالعمل به ، أو هى مجرد المعرفة . والفن فيما يقرأ ، لا فى القراءة ذاتها .

هذا موضوع ملغز ، يحسن أن نبدأ فيه من المبتدأ .

« فصل القاف باب الهمزة » : « القأقأة » أصوات غربان العراق . (أعاذنا الله من نقيق ضفادع الريف ، وقأقأة الغربان . فالأول مقلق للراحة ، والثانية منذرة بالبين) . القثاء بالكسر والضم ، أو الخيار .

القندأو كغنغلو ، السيئ الغذاء ، والسيئ الخلق ، والغليظ القصير ، والجرىء المقدم . وأكثر ما يوصف به الجمل .

القرآن التنزيل . ومن هنا نبدأ :

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ) السجدة . (يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ) يس . (ص ، وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ) ص . (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) الزمر . (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ الله الْعزيزِ الْعَلِيمِ) غافر . (تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يعْلَمُونَ) فصلت. (حم ، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) الزخرف . (حم ، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ) الدخان . (حم ، تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحكِيمِ) الجاثية . (حم ، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ الله الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) الأحقاف . (ق ، وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) ق . (الرَّحْمٰنُ ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَان) الرحمن . (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) القلم . (اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِىَ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ) العلق.

والمقرئ ، هو القراء (بالضم) أى الحسن القراءة للقرآن . من أقرأ فلاناً ، جعله يقرأ ، فهو مقرئ .

فإذا فهمنا كلمة فن بمعناها الحديث ، لا تكون القراءة فنًّا إلا أن يتلى ما يقرأ بتنغيم ، كترتيل القرآن بالقراءات العشر . أو أن يتلى الشعر والنثر قراءة بصوت الممثل أو الخطيب المدره ، فيكون هذا تمثيلاً أو خطابة .

وثمة قارئ يطالع المدونة الموسيقية فى سره ، فيتصور النغمات والإيقاع ، وقد يهمس أو يتبس بها . وهذا غير الأداء بغناء أو عزف .

ولكن كلمة فن فى اللغة تعنى أكثر من شيء واحد. يقول الفيروزابادى :

الفن : الحال والضرب من الشيء ، كالأفنون ، والجمع أفنان وفنون .

والفن ، الطرد والغبن والمطل والعناء .... والتزيين .

وافتن ، أخذ فى فنون من القول . وفنن الناس جعلهم فنوناً .

والتفنين التخليط ، وفى الثوب طرائق ليست من جنسه ، فتفنين الثوب اختلاف نسجه برقة مكان وكثافة مكان .

ورجل مِفَنّ أى يأتى بالعجائب ، مؤنثه مفنة .

أما المفننة فهى العجوز السيئة الخلق .

وأخيراً : الفنان ..... وهو الحمار الوحشى ، له فنون من العدو .

هذا كلام لا يقدم ولا يؤخر فيما نحن بسبيله . فلنفتح قاموس المجمع اللغوى « المعجم الوسيط » :

الفن : جملة القواعد الخاصة بحرفة أو صناعة ، وجملة الوسائل التى يستعملها الإنسان لإثارة المشاعر والعواطف وبخاصة عاطفة الجمال ، كالتصوير والموسيقى والشعر . ومهارة يحكمها الذوق والمواهب .

لعلنا نقترب من الغاية ، لا سيما أن « المعجم الوسيط » يفسر الكلمة فى مدلولها الحديث .

فهذا قاموس « دارمستتر » يقول :

١ ـ الفن وسيلة للتوفيق والنجاح فى عمل ما .

٢ ـ طريقة فى عمل الأشياء حسب القواعد ، كالفن الحربى ، والفنون والصناعات .

وجاء فى موسوعة لاروس الكبيرة :

١ ـ قواعد صناعة أو حرفة .

٢ ـ الوسائل التى يستطيع المرء أن يثير بواسطتها الشعور بالجمال .

٣ ـ جهد الإنسان ، مقابلا لعمل الطبيعة . نقول : هذه مدينة حصينة بطبيعتها ، وتلك مدينة حصنها الإنسان بالطرق الفنية ، أى أجرى فيها فنون التحصينات .

٤ ـ المهارة ، فى معنى قولنا : التفنن والشطارة .

فلنعد إلى موضوعنا : القراءة فن بمعنى أنها وسيلة للتوفيق والنجاح فى عمل ما .

والقراءة فن لأن لها قواعد

ولا يمارى إنسان في أن القراءة طريق سلطانى إلى ممارسة الحياة المتحضرة ، ولذلك اعتبرت القراءة والكتابة حجر الأساس فى التعليم .

نعم إن التعليم يتم عن طريق السماع ، ولكن الكتابة والقراءة امتداد للاستماع . وقد استنبط « لويس براى » وسيلة لهذا الامتداد بطريقة الكتابة البارزة للمكفوفين ، يكتبون ويقرءون بها . ولقد كف بصر الأستاذ براى فى الثالثة من عمره .

ومع أن الدراسات كلها أقوى أثراً بالسماع ، إلا أن كتابة ما يسمع فى درس أو محاضرة ضرورى لتوكيد ما وعاه السامع ، يعود إليه كلما شاء . والتعليم الجامعى الصحيح لا يكتفى بما يقوله المحاضر ويدونه الدارس فى أوراقه ، أو يطبعه الأستاذ فى ملازمه ، بل يمون ويدعم بقراءة أكثر من كتاب فى موضوع المحاضرة ، مساعدة للطالب على فهم الموضوع ، ولتوسيع مداركه بما يتفق ومعنى العلم ، بل لتمكينه من مناقشة آراء الأستاذ مناقشة واعية ، حين يتحول استيعاب الطالب من مجرد استذكار إلى فهم واسع الأبعاد .

القراءة إذن هى سبيل المعرفة ، والاستفادة ، والتبحر .

ثم يستوقفنا هنا تعريف للفن ورد فى الطبعة الأخيرة من « إنسكلوبديا بريتانكا » يقول :

« الفن فى أساسه معناه القدرة والمهارة . . . . ويعرف من يكتسب الحذق فى عمل ما بأنه صانع فنان (أرتيزان) ، إذا كانت مهارته تهدف

فى أهمها إلى غرض نفعى ، وفنان (آرتست) ، إذا كان هدفه التعبير عن الجمال » .

ولنا أن نفهم من هذا التعريف أن فن الآرتست نشاط جمالى خالص ، لا علاقة له بتحقيق فائدة عملية (ما عدا فن العمارة) ، فهل يمكن أن تكون القراءة فنًّا بهذا المعنى ؟

أى أن تكون خالصة لذاتها ، لا لتحضير رسالة علمية ، ولا لمذاكرة أو محاضرة ، أو لإعداد خطبة فى موضوع ما ، إلى آخر ما هنالك من أهداف عملية للقراءة .

أى أن تكون القراءة حبًّا فى القراءة ونهماً إلى الاطلاع ، وكلفاً بالمعرفة لذاتها . هل يوجد من الناس حقًّا من يضيف إلى القراءة الرشيدة المفيدة ، مطالعة لله فى لله ، يجد فيها القارئ لذة المستمع إلى الموسيقى ، أو من يمتع البصر بمناظر الطبيعة ، أو بآثارها الفنية ؟

إذا صح هذا ، فقد بلغنا لب الحقيقة ، والقراءة هنا فن لا مراء فيه .

وقد صح هذا عندى ، لا كحقيقة خارجية عرفتها فى غيرى من الناس فحسب ، بل كحقيقة داخلية خبرتها بنفسى ، وهى أن العلاقة بين القارئ والكتاب علاقة محبة ووئام ، قد ترتفع درجتها إلى حرارة الغرام .

* * *

كان لى فى أيام الصبا صديق من أهل النعمة واليسار ، ألف بين

قلبينا حب الكتب ، إلى غيرها من فنون التعبير والتشكيل .

وكان إذا اشترى كتاباً ، وجلسنا إليه ، فتحه ثم رفعه إلى قرب أنفه .... ليشمه !

أثارت تلك الحركة استغرابى ، فأردت أن أفهم معناها بالممارسة بعض الوقت . فإذا للكتب الجديدة عبيرٌ خاصٌ محببٌ للنفس ، قد تفقده لتكتسب روائح أخرى ... ترابية فى القاهرة ، أو زنخة فى الإسكندرية. ورائحة الكتب تختلف تبعاً لنوع ورقها ممزوجاً بحبر طباعتها : قارن بين الكتب الصفراء ، والكتب المطبوعة على ورق فاخر . وفى سنوات ما بعد الحرب الأخيرة ، عبرت بأنى رائحة الكتب الأجنبية فى الطبعات الرخيصة (كتب الجيب وما إليها) ، مصدرها فيما أظن مادة البلاستيك اللامعة التى تكسو أغلفتها .

المهم أن حركة صديقى الغريبة كشفت لى عن إحساس « القارئ الفنان » بالميل الشديد إلى الكتاب ، كمجرد كتاب ، ونبهنى إلى أنى ، ولو لم أك أشم كتبى الجديدة ، إلا أنى أقلبها ، وأتأملها من قرب ومن بعد ، كعوبها وحروفها المذهبة ، أتحسس ورقها ، وأفر صفحاتها ، أقف بفصل هنا وفصل هناك ، وأطيل النظر إلى الفهرست ، والصور .

ثم كان لى صديق بمدينة تولوز — المرحوم الكاتب حسن صادق — يهوى الكتب فى طبعاتها الفاخرة ، وتجليدها المترف . وكان إلى هذا قارئاً عكوفاً . لم يكن يبخل على بإعارتى ما شئت منها ، فتعلمت أشياء

خاصة بأصناف الورق الغالى ، كالفولان ، والهولاند واليابون إلخ ، ويقيمة ما يعرف بالطبعة الأصلية ، وتبلغ أسعارها مبالغ خيالية فى كتب القرون السالفة . والغالب أن يصدر منها عدد من النسخ المرقمة من واحد إلى عشرة ، مثلا ، فى أفخر أوراقها، ومن ١١ إلى ١٠٠ لما يتلو ذلك من الورق الممتاز ، وهكذا حتى رقم ٣٠٠ أو ٤٠٠ .

ولقد تكفلت بنشر أول كتاب لى ، فاخترت ورقاً جيداً للنص ، وورق كوشيه للصور ، وذهبت إلى خطاط كبير ليكتبَ لى صيغة التقديم وعنوانات الكتاب وفصوله . آثرت لها الخط الفارسى الذى عشقته منذ نعومة أظفارى . وفى كتابى الثانى « حديث السندباد القديم » قدت الخطاط إلى مسجدى قلاون والناصر محمد ، وطلبت منه أن يكتب العنوان واسم المؤلف بالخط المملوكى الذى زينت به الأفاريز الخارجية والداخلية .

وكان صديقى المرحوم محمود طاهر لاشين ، رائد القصة المصرية القصيرة ، يعجب من هذا السرف فأقول له هازلا : هبْنى أصرف على زفة ختان ولد لى !

والحقيقة كامنة فى شغفى بالكتب كأسفار فى ذاتها ، بعد أن نما ذلك الشغف من أثر مضامينها ، وما أدين به لها .

ويبدو لى أن الاسترسال فى هذا العشق المجرد يبعدنا عن القراءة ذاتها كفن ، فى بعض ما تعنيه هذه الكلمة ، وهو : قواعد صناعة أو حرفة (لاروس الكبير) . فماذا يكون فى القراءة فى هذا المعنى ؟

أوله التذوق ، وهو حاسة أساسية لكل تأثر بالفن . هاوى القراءة ذواقة قبل كل شيء ، لا مجرد قارئ لضرورة أو فائدة .

إنه لا يقتنى كتاباً فى تفسير الأحلام ، أو فى الطب الطبيعى ، أو فى اليوجا ، أو فى رياضة الجسم . فالقراءة عند الذواقة فن ، وعند الآخر طلاب فائدة . والناس كلهم يقرءون للفائدة . أما القارئ الفنان — إلى استهدافه المنفعة كبقية الناس — فهو من يقرأ حبًّا فى القراءة ، وكفى .

* * *

إخالنى أقترب مما أبحث عنه منذ البداية ، فلألتمسنّ المعونة من ذكرياتى الأولى فى القراءة ، خارج الكتب المدرسية .

أذكر أن حبى للقراءة أثارته كتب بمكتبة والدى لا علاقة لها بالرياضة والهندسة المعمارية ، ومكعبات الهدم والردم : مجلاّت باسم « التنكيت والتبكيت » ، و « المقتطف » — فى أعدادها الأولى بالحروف المسلوخة ، و « مجلة المجلات » ، و « الهلال » . وكتاب « بدائع الزهور فى أخبار الدهور » المنسوب إلى ابن إياس (وهو غير كتابه التاريخى العظيم) ، يقص علينا أساطير خلق الكون ، السهل فيه والحزن ، جباله وأنهاره وبحاره وسماواته ، فخلق الملائكة ، فالجن ، ثم الإنسان .

وكتاب « عجائب الهند ، بره وبحره وجزائره » لبزرك بن شهريار الناخداه ، وهو يحتوى على مغامرات البحريين العرب والفرس فيما يشبه حكايات السندباد . وقصة « تغريبة بنى هلال » ، و « الظاهر بيبرس » ،

و « الأميرة ذات الهمة » ، و « حمزة البهلوان » . والكتاب الذين أجرى عبراتى مدراراً : « نور العين فى مشهد الحسين» .

ثم « ألف ليلة وليلة » .... ولا أنسى منه قصة « الحمال والسبع بنات » ، وما حدث فى بدايتها من مداعبة مكشوفة بين الحمال والبنات حول بركة ماء فى فناء منزلهن . وقصة « الحسن البصرى » وسفره بحثاً عن زوجته التى هجرته وطارت إلى بلادها بجزائر واق الواق . وقصة «القلندرى الثالث » ، و « قمر الزمان ابن الملك شهرمان ، صاحب جزائر خالدان ، وما جرى له مع معشوقته الأميرة بدور بنت الملك الغيور ، صاحب السبعة بحور » ، و « أنس الوجود مع الورد فى الأكمام » ذلك « الإيديل » الشعرى الذى يفيض صبابة .

وأخيراً تلك الرحلات البحرية العجيبة يروى أخبارها تاجر ثرى فى بغداد اسمه السندباد ، فى جمع من أصحابه ، وقد انضم إليهم حمال استضافه الرحالة فى يوم شديد القيظ ، عند ما عرف أنه سميه ، وقال له « إذن أنت السندباد البرى ، وأنا السندباد البحرى » .

ثم القصص التى تجرى وقائعها تحت سطح البحور العميقة ، مثل قصة « عبد الله البرى ، وعبد الله البحرى » (راجع تحليلى لكل هذا القصص البحرى فى كتاب « حديث السندباد القديم ») .

وأذكر أول سفر إلى الريف مع جدتى لزيارة أسرتها ، ولم يكن ريفاً نائياً (قرية أوسيم) ، وكيف حملت إليه قصص « الفرسان الثلاثة »

و « روكامبول » ، وما إليها من القصص المترجم فى مطالع هذا القرن .

وقرب المراهقة عثرت فى مكتبة والدى على ذلك الكتاب الرومانتيكى القح « الأجنحة المتكسرة » لجبران خليل جبران .

أى أننى انتقلت إلى المرحلة الثانوية ولوعاً بالقراءة ، وإذا بى أجد بين يدى جارى بالمدرسة — وكان ابن ناظر النظار (رئيس الوزراء) فى ذلك الحين — كتباً إنجليزية بجلدة حمراء تتصدر غلافها صور ملونة ، ولها عنوان عام هو « لمحات من بلاد كثيرة » .

فأبديت للوالد رغبتى فى اقتناء مثل هذه الكتب ، واصطحبنى إلى مكتبة الألمانى « ديمر » بمبنى فندق « شبرد » القديم . وخرجت أطير فرحاً بكتاب عن « الصين » ، وآخر عن « الهند » . وفى مرات تالية حملت الترجمة الإنجليزية لكتب إسكندر دوماس : « الفرسان الثلاثة » و « بعد عشرين سنة » و « الملكة مارجو » و « الكونت مونت كريستو » فى طبعة رخيصة مصورة (نلسون) .

وفى الثانية الثانوية قرأت قصة « وردة » فى ترجمتها الإنجليزية ، ثم عثرت على ترجمتها العربية لمحمد مسعود ، كتب تحت عنوانها « رواية تمثل أخلاق وعادات المصريين فى عهد رعمسيس الثانى ، وترسم للقارئ نظام حكومتهم ، وما وصلوا إليه من التقدم فى العلوم والمعارف . أبرزها من الآثار القديمة وأوراق البردى الدكتور جورج إيبرس الألمانى » .

وفى الثالثة الثانوية بدأ غرامى بالمسرح ، مما دفعنى إلى قراءة الأدب

التمثيلى فى كل ما ترجم إلى العربية حينذاك .

وفى السنة الرابعة كان تقرير قصيدة وليام موريس الشعرية « حياة وموت چيسون » مفتاح الأدب اليونانى ، وتوفرى على اقتناء سلسلة كتب « أفريمان » بدءاً بالقاموس الكلاسيكى ، « والإلياذة » ، و «الأوديسية» ، فالمسرح الإغريقى كله .

ويمكن القول بأن القراءة تحولت عندى من الغرام العارم ، إلى الاطلاع المنظم ، يتابع خطوطاً بعينها . وساعدنى كتالوج « أفريمان » على معرفة أعلام الكتب فى آداب العالم ، فلم أنتقل إلى الدراسة العالية حتى كنت قد قطعت شوطاً بعيداً فى قراءة تلك المؤلفات العظيمة ، كما كنت قد بدأت دراسة اللغة الفرنسية لأطالع آدابها فى نصوصها .

ولا أزعم أنى كنت أفهم كل ما أقرأ ، إنما المهم أننى كنت أتابع غالباً خطة ، وأسلك طريقاً سوياً إلى المعرفة . فما إن بدأنا فى المرحلة الثانوية دراسة الأدب العربى ، حتى عولت على قراءته من أوله ، أعنى من الشعر الجاهلى ، ولم أتوقف إلا عند توقف الحضارة العربية .

والحق أنى الآن مندهش ، ولا أكاد أصدق أننى فى حياتى قرأت كل تلك الكتب . والأعجب أن إحساسى فى شيخوختى هو أننى لم أتعد نصف مرحلة الاطلاع !

ولقد وجدت فى مكتبة والدى كتاباً يغلب على الظن أنه دخل البيت بطريق الخطأ . عرفت من عنوانه أنه نص (ليبرتو) رواية «عايدة» لشاعر

إيطالى اسمه كيسلانزونى ، وفهمت من الإشارات والرموز بداخله أنه يحتوى على موسيقى ڤردى .

هذا المجلد ما زال فى مكتبتى ، وما برحت أذكر كيف كنت أجلس إليه حائراً ، أقلب صفحاته معجباً بتلك الرموز التى لا أفهم منها حرفاً ، كما لا أفهم إلا قليلا من النص الإيطالى المكتوب تحت الموسيقى . ولو أنى كنت أعرف الرواية من نصها العربى — وهو باق عندى إلى اليوم — كما شهدتها من جوقة الشيخ سلامة حجازى .

إلى أن حل اليوم السعيد جداً فى حياتى ، الذى تمكنت فيه من فك تلك الرموز الموسيقية ، وأخذت أقتنى مدونات الموسيقى الرفيعة ، فأضفت متعة جديدة للقراءة ، وهى إمكان مطالعة تلك المدونات . وهى لذة لا يعرفها إلا دارسو الموسيقى ، عندما يعودون من سماع حفل سمفونى ، أو أوبرا ، ليراجعوا ما سمعوه فى مدوناتهم ، وكأنهم يقرءون فى كتاب مفتوح . أو حين يتابعون أداء موسيقياً مسجلاً ، وهم يقلبون صفحات مدونته .

* * *

أهذا ما عناه الأصدقاء الذين طلبوا إلى الكتابة فى موضوع : القراءة فن ؟

أم كانوا يقصدون إلى أن أعطى دروساً فى الموضوع ، فأرسم خطة حكيمة للقراءة الرشيدة ؟

ولكنى لا أومن بالخطط التى يرسمها لى الآخرون . وأحسب الناس

فى هذا على شاكلتى .

ثم إنى لا أعرف طريقة لتحبيب القراءة إلى من ليس لديه استعداد لها .

وبعد كل ما قلت ، فإنى غير متأكد من أن القراءة فن ، إنما هى يقيناً داء ، دواؤه نفسه . إنها نوع من الإدمان الخطير قد يتحمل الضحية فى سبيلها كل حرمان .

ما أكثر ما فرحت فى حياتى باقتناء لعبة ، أو دراجة ، أو جهاز تصوير أو تسجيل ! وما أحب إلى أن أشترى كساء أو حذاء أو ربطة رقبة تعجبنى فى فترينة !

ومع ذلك ، كم أحب أن يصدقنى القارئ وأنا أختم هذا الفصل بزعم أنى لا أعرف فرحة تعادل فرحى باقتناء الكتب . وأحب الفترينات إلى هى ما يوضع فى واجهات المكتبات .

فرحة لم تضعف من سنوات الحداثة حتى أوائل الشيخوخة ، وما أظنها إلا فى ازدياد على كر السنين .

أعود إلى البيت بربطة كتب ، أو مدونات موسيقية — وهذه كنت أطلب أكثرها من الخارج — فلا أنقلب إلى فراشى حتى أكون قد محضتها واحداً واحداً ، كالبخيل بين دنانيره . أشاهد صورها ، أو أتمثل ألحانها ، أطالع بعض أولها ، وبعض أوسطها ، وبعض آخرها ، لإشباع فضولى ، ولتطمئن نفسى على حسن اختيارى ، وتواعداً على لقاء ممتع طويل .

قد تكون كتباً فى التاريخ العام ، أو فى السياسة ، أو الفنون ، أو

الاجتماع ، أو العلوم ، أو الجماليات ، أو التراجم ، أو الرحلات .

ماذا يهم ؟ إنني الحمار يحمل أسفاراً ، يحب حمله ، ويعي ما فيه !

لا أهاب سوى كتب الفلسفة الأصيلة ، فلم أجسر على الاقتراب من إيمانويل كانت ، وسبينوزا وهيديجر ، وهوسرل وكارل ياسبرز . حتى بول سارتر لا أطالع له سوى ما يقرؤه كل الناس ، فما فتئت مع شديد الأسف حرفوشاً أمياً فى الفلسفة .

وفى الاقتصاد الحديث ، غير التقليدى ، كأنى الأطرش فى الزفة . حصنت نفسى بالصبر والجلد فطالعت مختصراً وافياً لكتاب كارل ماركس « رأس المال » ، وقد فهمته بعد عناء .... نص نص !

ولكنى لا أعرف معنى اليأس فى شئون القراءة ، نشأت على قصة للأطفال الإنجليز تقول حكمتها : حاول من جديد .

وهى النصيحة التى أسديها للقراء: لا تصدنَّك صعوبة عن المضىّ فى قراءة كتاب عظيم . أعد قراءته ، وسترى أنك بعد فهمه ستطالعه مثنى وثلاث ورباع .

حسين فوزى



إن جامعة هذه الأيام الحقيقية هى مجموع الكتب .

كرليل

لنا جلساءٌ ما نملّ حديثهم ... ألبّاء مأمونون غيباً ومشهدا

يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ... ورأياً وتأديباً ومجداً وسؤددا

فلا غيبةٌ تخشى ولا سوء عشرةٍ ... ولا تختشى منهم لساناً ولا يدا

فإن قلت أمواتٌ فلم تبد أمرهم ... وإن قلت أحياءٌ فلست مفنّدا

شاعر قديم



الدكتور السعيد مصطفى السعيد

القراءة والثقافة

من الأقوال المأثورة أن أول العلم الصمت والثانى الاستماع والثالث الحفظ والرابع العقل وخامس مراتبه النشر.

وإذا نظر إلى الصمت بوصفه شرطاً لازماً للاستماع صح القول بأن أول العلم الاستماع .

ولقد قيل هذا فى وقت كان الاستماع فيه هو وسيلة العلم الأساسية ، ولا نقول الوحيدة ، إذ كان إلى جانبه دائماً وسائل أخرى لتحصيل العلم والمعرفة بما يدركه الإنسان ببصره أو حواسه الأخرى . كما قيل فى وقت كان العلم فيه وصفاً يطلق على كل ما يمكن تحصيله من نواحى المعرفة .

ولقد تغير الوضع فى زماننا سواء فى معنى العلم ، أم فى وسائل تحصيله .

أما العلم فإن كان فى الحقيقة وصفاً لكل ما يحصله الإنسان من وجوه المعرفة ، فقد أصبح له فى الاصطلاح معنى أضيق ، بما يجعله مرادفاً

على نحو ما لعبارة « المعرفة المتخصصة » فى فرع أو أكثر من فروع المعرفة بمعناها الشامل . وهو ربما يكون له معنى أضيق من هذا إذا ما رئى تفريع وجوه المعرفة المتخصصة إلى علوم طبيعية وعلوم إنسانية ، فيطلق على الأولى العلوم والثانية الإنسانيات . وهذه التفريعات لا تعنينا فى هذا المقام إلا فى كونها تشير إلى معنى من تحصيل المعرفة يختلف فى نطاقه ومدلوله عن معنى « الثقافة » ، وإن كان داخلا فيها من وجه .

ذلك أن الثقافة أعم وأشمل ، فهى تعنى الإلمام بنواحٍ مختلفة من المعارف ، فيما يحيط بالشخص من بيئة ، وما جرى فيه تاريخه ، وما تجرى عليه أمور العالم الذي يعيش فيه ، إلى غير ذلك من نواحى المعرفة التى لا يمكن حصرها فى نطاق محدود ولا تقتضى التخصص الدقيق فى فرع بعينه. ومن أجل ذلك ، جاز أن يجمع الفرد الواحد بين العلم والثقافة ، بأن يكون عالماً متخصصاً فى مادة ، مثقفاً فى الجملة بالإضافة إلى ذلك . وإلى جانب هذا يوجد المتخصص فى ناحية من العلم ، وربما يبلغ فيه شأواً بعيداً ، وهو مع ذلك مقطوع الصلة بما خرج عن تخصصه من معارف ، فيضيق أفقه وينحصر فيما تخصص فيه ولا يقال له إنه مثقف .

على أن الثقافة بمعناها هذا تحتمل هى الأخرى تفريعاً ، على قدر ما تتصل به من نواح ومجالات خاصة ، فيقال الثقافة القانونية ، والثقافة السياسية ، والثقافة التاريخية إلخ . وهنا يختلط معنى العلم بمعنى الثقافة . ويكون الفرق بينهما فرق قدر وعمق ، أما المجال فمتفق . فإذا تعددت

المجالات ولم تنحصر فى ناحية معينة سميت « ثقافة عامة » .

* * *

وإذا كان العلم مطلوباً فى مجالاته الخاصة ، فإن الثقافة مطلوبة فى الجملة . وربما تكون ألزم للجمهور فى مجتمعنا المعاصر . وهى من حيث لزومها درجات ؛ فمنها ما يكون واجباً ومنها ما هو دون ذلك .

والثقافة الواجبة هى ما تكون لازمة للمرء فى حياته فى المجتمع الذى يعيش فيه ، من حيث إلمامه بنظمه وإدراكه لحقوقه وواجباته ، وما هو مباح له وما هو ممنوع منه ، إلى غير ذلك من صور المعرفة بما يجنب الإنسان المسئولية أمام السلطات أو اللوم من مواطنيه . ولعل هذا الوجوب هو الذى بنى عليه المشرعون فى كل مكان المبدأ الذى يقضى بأن الإنسان لا يعذر بجهله بقوانين البلاد التى يعيش فيها . على أن العلم فى هذا المجال لا يمكن أن يكون إلا علماً فى الجملة ، وهو ما يحقق معنى الثقافة ، وإلا دخلنا فى مجال التخصص الذى لا يطلب إلا من قلة .

وإلى جانب هذا توجد الثقافة العامة فى مختلف النواحى ، وهى التى تكوّن شخصية الفرد وتسمو بها وتميزه بين أقرانه . وعلى قدر زيادة حصيلته من الثقافة يكون سموه بين أقرانه وفى بيئته أدبيًّا بل ماديًّا أيضاً فى كثير من الأحوال .

وانتشار الثقافة وذيوعها فى بلد من البلاد عامل جوهرى فى تقدمه ، لأنها تزيد من وعى الجمهور بإدراك الفرد منه حقوقه وواجباته نحو وطنه

ونفسه ومواطنيه ، وهو ما يؤدي إلى سلامة نظام الحكم واستقراره ، بما يترتب على ذلك من رقى البلد فى الجملة ورفعة شأنه بين الدول ، وهذه ناحية سياسية . والمثقف أقدر على تدبير شئون نفسه ورفع مستواه من حيث أسلوب الحياة والعناية بنفسه وأهله بما يؤدى إلى تحسين الحياة الاجتماعية ورفع مستواها ، وهذه ناحية اجتماعية . وهو فى عمله أقدر على فهم واجبه ، وإدراك مزايا الإتقان والجودة ، بما يؤدى إلى رفع المستوى فى الصناعة والزراعة وغيرهما من نواحى النشاط ، وهذه ناحية اقتصادية . وغير ذلك كثير مما لا يتسع المجال للدخول فى تفصيله .

ومن أجل ما تقدم صح أن يقال إنه على قدر ثقافة الفرد يكون قدره فى مجتمعه وبين أقرانه ، وعلى قدر ذيوع الثقافة وارتفاع مستواها فى بلد يكون علو شأنه ورقيه فى مدارج الحضارة .

* * *

ووسائل تحصيل الثقافة متعددة ، فالإنسان يتثقف بما يدركه بحواسه ومن أولها حاسة السمع بما يتلقاه سماعاً من الغير عرضاً أو تلقيناً .

ثم إنه يتثقف بما يدركه بحاسة البصر فيما يراه بعينيه من المرئيات ، فهو يرى البناء الجميل وكيف أقيم فيحصل ثقافة ، والطريق المنظم للمرور يموج بالبشر ووسائل المواصلات فيحصل ثقافة ، وواجهات المحال التجارية تزخر بالسلع والمعروضات وقد نسقت فى أساليب مختلفة فيضيف إلى حصيلته من الثقافة ، فإذا ذهب إلى دار العرض السينمائى رأى بعينيه

ما لم يكن هنالك سبيل لرؤيته من بلاد ومناظر ، أو إدراكه من أساليب الحياة فى أرض الله الواسعة ، وكل هذا ثقافة يضيفها إلى ما سبق أن حصله . وإلى جانب هذا كله، وأهم منه وأكبر أثراً، ما يحصله الإنسان من القراءة .

* * *

والقراءة هى بالقياس إلى وسائل تحصيل الثقافة من أحدثها عهداً . فهى لم توجد إلا باختراع الكتابة ، وكان ذلك فى مرحلة متقدمة فى تاريخ البشرية لم يكن الإنسان فيها مجرداً من كل ثقافة ، بل كان لديه ما حصله بوسائله الخلقية من سمع وبصر على ما تقدم .

ولقد بقيت القراءة مدة طويلة وسيلة محدودة الأثر ، مقصورة على عدد ضئيل من الناس ، وذلك قبل أن يصنع الإنسان الورق ، ثم بعد أن صنعه وقبل أن يخترع الطباعة . فلقد كانت الكتب تنسخ فى أعداد قليلة ، الأمر الذى جعل تكلفتها غالية تعز على جمهور الناس ولا يقدر عليها إلا قلة من الموسرين . وبالإضافة إلى ذلك كان تداول الكتاب من مكان إلى آخر محدوداً لصعوبة المواصلات .

وتبدل الحال باختراع الطباعة إذ أصبح من المستطاع طبع الكتاب فى مئات النسخ ثم فى آلافها وأكثر من ذلك على ما هو معروف ومشاهد . فقلَّت تكلفة طبع الكتب ، فأصبحت ميسرة لجمهور القارئين . كما أن تقدم طرق المواصلات جعل نقل الكتاب وذيوعه فى أطراف الأرض أمراً

ميسوراً يتم فى وقت قصير وبنفقة قليلة .

وكان اختراع الطباعة وزيادة إمكانياتها ، وتقدم المواصلات ، داعيين لظهور نوع من المطبوعات لم يكن معروفاً من قبل هو الصحف والدوريات على اختلاف أنواعها ، تعرض بأثمان زهيدة وفى أشكال جذابة تستهوى القارئ والمشاهد ، فكملت الصورة وأصبحت القراءة ، بحق ، الوسيلة الأولى فى تحصيل الثقافة وإذاعتها فى مختلف المستويات ، وبخاصة بعد أن انتشر التعليم وأصبح الإلمام بالقراءة والكتابة أمراً جوهريًّا فى تأهيل المواطنين ، تحرص عليه الحكومات وتعمل على تحقيقه ، بل تعاقب على الإعراض عنه أو التراخى فيه .

وباكتمال الصورة على هذا الوجه أصبح من الميسور أن يجمع الإنسان فى داره ، فى بضعة رفوف ، مجموعات من الكتب تمثل مجموعة المعارف التى تضطلع بها كلية جامعية بل جامعة بأسرها ، يرجع إليها فى أى وقت ويستخلص منها ما يشاء بغير ما حاجة إلى درس أو تلقين .

ولقد تقدمت أساليب الطباعة وزادت المطبوعات دقة ورونقاً . إذ أدرك الطابعون والناشرون أن دقة الطبع وجمال التنسيق وحسن العرض أدعى إلى قبول المطبوع لدى القارئ . وكان نتيجة ذلك ما نشاهده الآن من إتقان فى طبع الكتب وتجميلها بالصور والرسوم التوضيحية مما يحببها إلى جمهور القارئين . وهى فى ذلك شأنها شأن الكلام المسموع ، فكلما كان الصوت هادئاً حلواً على الأذن كان أدعى إلى الإنصات

إليه مما لو كان خشناً أجشّ تستثقله الأذن وينفر منه السامع .

* * *

ولقد ترتب على ذيوع الطباعة ورخص تكلفتها أن فاضت المطبوعات بأنواع من الأفكار والآراء والمعلومات على مختلف المستويات ؛ من القيّم الرصين إلى الغث التافه ، ومن المفيد الموجّه إلى الخطر الذى يدعو إلى الانحراف . بل إن منها ما يحوى معلومات خاطئة مضللة أقحمت فيه عن قصد أو عن غير قصد . ومن أجل هذا نشأت مشكلتان تستأهلان العناية بل تستوجبان المواجهة . أولاهما كيف يختار القارئ كتابه ؟ والثانية هل هناك محل لفرض رقابة من نوع ما على طبع الكتب وغيرها من المطبوعات ، وعلى إذاعتها ، لتجنب الآثار الضارة التى تخشى من كتاب أو مطبوع بعينه ؟

وقبل أن أعرض لأية المشكلتين أود أن أقول إنه ما من معلومات تذاع يمكن أن يقال إنها شر فى ذاتها ، فليس هناك خير محض ولا شر محض ، وإنما يكون المطبوع ، أو بالأصح ما حواه ، مضراً بالقياس إلى شخص أو أشخاص معينين ، أو فى زمان معين ، أو فى مكان معين. بمعنى أن الكتاب ربما يكون ملائماً لسن دون سن ، أو لمستوى ثقافى دون آخر ، أو فى بيئة دون أخرى . فالكتب التى تعرض لشئون الجنس ربما تكون غير مرغوبة أو ضارة للمراهقين ، ولكنها فى الوقت نفسه تكون نافعة بل لازمة لغيرهم . والكتب التى تبحث فى أصول الديانات

والعقائد ربما تكون غير ملائمة لمحدودى الثقافة فتهز إيمانهم ، وهى مع ذلك جديرة بأن تلقى عناية وبحثاً من الراسخين فى العلم والمفكرين . والكتب التى تبحث فى نقد نظم الحكم وأساليب السياسة ربما تكون غير ملائمة لمن يأخذون الأمور بظواهرها فيندفعون وراء أفكار وأفعال ما كانوا ليتجهوا إليها لو أنهم كانوا أعمق ثقافة وأدق بصراً ، وهى مع هذا نافعة بل لازمة لمن يعنى بشئون الحكم وسياسة الشعوب . . وهكذا .

* * *

ونعود لموضوع اختيار القارئ لكتابه ، وهذه مسألة ترجع للقارئ نفسه. إذا كان على قدر كاف من الثقافة فإنه يقدر على أن يختار كتابه بنفسه ، ومن اليسير عليه أن يحكم على كتاب حكماً فى الجملة من قراءة سريعة لبعض ما جاء به وأحياناً من مطالعة فهرست موضوعاته . ويوجهه فى ذلك مزاجه الشخصى أو الغاية التى يتوخاها إن كان يبحث عن موضوع معين . أما من كان دون ذلك من الثقافة فعليه أن يسترشد بمن هو أقدر منه ، وليس فى ذلك ما يعيب لأن الساعى إلى المعرفة مشكور دائماً . وفى الصفحات الأدبية التى تنشرها بعض الصحف والدوريات ، وتعرض فيها إلى الحديث من الكتب ، وفى استعراض المؤلفات الجديدة فى الدوريات التى تعنى بذلك ، وهى للأسف قليلة العدد فى بلادنا ، مايعين فى ذلك إلى حد كبير .

* * *

أما موضوع الرقابة فهو موضوع شائك . ولست أقصد بالرقابة

تلك التى تفرضها السلطات فى الدولة فى الظروف الاستثنائية كحالة الحرب ونحوها ، فهذه تتصل بمصالح الدولة العليا وأمنها ، وهى على أية حال مؤقتة تنتهى بانتهاء موجبها .

والرقابة التى أقصدها هى تلك التى يضطلع بها الآباء والمربون، وهذه مسألة لا ينبغى أن تهمل . ومن الواجب إجراؤها بلباقة وحرص. ويحسن تجنب التصريح بالنهى ، فإن هذا كثيراً ما يدفع إلى تحدى النصح ، وهو عامل نفسى ، فالنفس كثيراً ما تتجه إلى تجربه ما تنهى عنه واجتلاء سره المجهول.

وللدولة رقابة من هذا النوع تجريها فى حدود القوانين بما تتخذه من إجراءات لمنع نشر الكتب والمطبوعات التى تذيع الأفكار الهدامة ، أو تدعو إلى الإخلال بأوضاع الدولة ونظمها ، أو إلى إفساد أفكار الشباب ودفعهم إلى الانحراف . وأسلوب الدولة فى ذلك تتضمنه قوانين النشر وقانون العقوبات . ولا اعتراض على هذا من حيث المبدأ ، وكل ما يمكن أن يقال فى شأنه إن هذه الرقابة لا ينبغى أن تكون شديدة متزمتة فتحد من حرية الفكر وتعوقه ، كما لا ينبغى أن تكون فضفاضة إلى الحد الذى تصبح فيه صورية فتضيع فائدتها ويبقى وزرها . وتحديد القدر الملائم فى هذا المجال يجب أن يعهد به إلى أشخاص يتوخى فى اختيارهم أن يكونوا هم أنفسهم على قدر من الثقافة يمكنهم من الاضطلاع بهذه المسئولية الخطيرة فيحسنون القيام بها .

السعيد مصطفى السعيد

الكتاب وعاء ملئ علماً ، وظرف حشى ظرفاً . . . وبستان يحمل في ردن ، وروضة تنقل في حجر ، وناطق ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء...

ولا أعلم رفيقاً أطوع ولا معلماً أخضع ولا صاحباً أظهر كفاية ولا أقل جناية ولا أكثر أعجوبة وتصرفاً ولا أقل تصلفاً وتكلفاً من كتاب ...

ولا أعلم قريناً أحسن موافاة ولا أعجل مكافاة ولا أحضر معونة ولا أخف مؤونة ولا شجرة أطول عمراً ولا أطيب ثمرة ولا أقرب مجتنى من كتاب . . .

ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وإمكان وجوده يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القويمة والتجارب الحكيمة وأخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة والأمثال السائرة والأمم البائدة ما يجمع لك الكتاب .

الجاحظ



الدكتور السيّد أبو النجا

القراءة مبدأ حسابى

قد يبدو لأول وهلة فى هذا العنوان شىء من التناقض . فالقراءة الحرة الرحبة لا يمكن أن تشد إلى الحساب الجامد الذى يقرر أن ١ + ١ = ٢ ثم يرفض المناقشة فى هذه الحقيقة . لكن معنى القراءة من الناحية العلمية أنها عمل عقلى وانفعالى ، فهى تقتضى التعرف على الكلمات ، وفهم معناها ، والإحساس بما يقدمه كاتبها فيها من توجيهات ، ثم تقييم هذه التوجيهات قبل وضعها موضع التطبيق . وهذا التفسير يؤلف بين القراءة والعمل . فالقراءة هكذا أداة لاصطياد المعلومات وإثارة الإحساسات . وهذه تتفاعل فى نفس القارئ مع تجاربه القائمة ، فتؤثر فى سلوكه الذهنى والإنسانى ، وتصبح قوة تحركه لينطلق فى الحياة وفقاً لسلوكه الجديد ، فيأتى من التصرفات ما يعود بالخير أو بالشر على حياته وحياة المجتمع الذى يعيش فيه . ومن هنا تصبح القراءة وسيلة للتنمية أو للهدم ، فلا بد

من الرقابة العلمية عليها ، ومتابعة آثارها على مختلف الطبقات ، وقياس نتائجها بالأرقام فى حياة الأفراد . أرأيت إذن أنه لا تناقض بينها فى النهاية وبين الحساب ؟

إن القراءة من شأنها أن تسهم إيجاباً فى تطوير الشخص فتزيد دقته فى تقصى المعلومات والحكم على الأشياء ، وتؤثر فى اتجاهاته ومستواه الخلقى ، ومعتقداته وتصرفاته . ولكنها أيضاً قد تسهم سلباً فى تطويره فتقوده إلى أعمال ضارّة ، ولذلك ينظر المصلحون فى قلق إلى ما ينشر عن الجنس والجريمة . وقد أصبحت القراءة اليوم من أدوات الدعاية الفعالة ، ولذلك عنيت الحكومات بتعويد شعوبها التفكير فيما تقرأ ، وتقييم مصادره . وقد وضعت الحكومة الأمريكية بين سنتى ١٩٣٠ ، ١٩٥٠ دراسات لتحسين فن القراءة ، وقامت المؤسسات الصناعية الكبيرة بعد ذلك بوضع دراسات خاصة بموظفيها لتعليمهم هذا الفن .

المراحل الأربع لتعلم القراءة :

أظهرت الأبحاث أن تحصيلات التلاميذ من القراءة تختلف اختلافاً كبيراً ، فبعضهم يصل فى المرحلة الأولى إلى ما لا يصل إليه سواه إلا فى المرحلة التالية أو التى بعدها .

والمرحلة الأولى هى التى يبدأ فيها الطفل فى تكوين ملكاته العقلية والاجتماعية والعاطفية واللغوية ، حتى إذا وصل فى عمره إلى ست سنوات بدأ

يهتم بالكتاب وبالكلمة المطبوعة فيدخل المرحلة الثانية ــ

وفى هذه المرحلة يتعرف بنظره على نحو ثلثمائة كلمة ، ويزداد اهتمامه بالقراءة لأنه يبدأ يفكر فيما يقرأ . ومع تزايد سنه يتعلم كيف يستقل بنفسه فى القراءة فيدخل المرحلة الثالثة .

وفى هذه المرحلة تزداد سرعته فى القراءة الصامتة ، وفى فهم ما يقرأ ، ويزداد عدد الكلمات التى يتعرف عليها بنظره إلى ألف وخمسمائة أو ألفى كلمة ، ثم يتعلم القراءة بصوت مسموع ، ويكتسب المهارات اللازمة للتحدث بما يجمعه من قراءاته ، كما يستخدم القراءة لإشباع حب الاستطلاع فى نفسه ، ولجنى المعلومات من العلوم المختلفة .

بقيت المرحلة الرابعة . ومن خصائصها أن تكون القراءة باهتمام أكبر وتذوق أحسن . وخلال هذه المرحلة تنقى القدرات السابقة وترهف ، ويتسع مدى التعرف على الكلمات والمعانى ، وتنمو القدرة على التفسير . وبزيادة الحصيلة من المعرفة تتأكد القدرة على التقييم الصحيح ، والاستفادة من القراءة فى تكييف الاتجاهات والسلوك . إن القراءة فى هذه المرحلة تزداد اتساعاً وعمقاً فيصبح القارئ ــ كما يقول William. S. Gray ــ ناضجاً Mature

القراءة والاهتمامات :

أثبتت الدراسة أن الأطفال يظهرون فى مدارجهم الأولى اهتماماً

بالحيوانات، وميلاً إلى الحكايات عن الأطفال الآخرين الذين هم فى سنهم . وقبيل المراهقة يظهر الأولاد ميلا إلى قراءة المغامرات وطرق القيام بها والهوايات وعبادة الأبطال . أما البنات فيظهرن اهتماماً بالبيت والحياة المنزلية ، وبعضهن يملن إلى قراءة المغامرات . وقد لوحظ أن البنات يحببن كتب الأولاد ، على حين أن الأولاد لا يحبون كتب البنات.

وفى سن المراهقة يبدى الأولاد اهتماماً بالمجهول وبالألعاب الرياضية وذواحى الترفيه ، فى حين يقبل البنات على الروايات الغرامية والقصص التى تعالج مشاكلهن قبل سن العشرين .

أما اهتمامات البالغين فهى متنوعة ومعقدة .

وقد ذكر Dogulas Waples and Ralf W. Tyler أنهما بحثا الميول للقراءة عند البالغين – على مستوى دولى – فوجدا أنها تختلف باختلاف الجنس والسن والبيئة والوظيفة وعدد سنوات الدراسة ولم تتفق الميول إلا فى اتجاهين اثنين هما الاتجاهات الدولية والنظافة الشخصية ، كما لاحظا أن سهولة الوصول إلى المواد المقروءة من أهم دوافع الإقبال عليها ، ولذلك تقرأ الجرائد والمجلات أكثر مما تقرأ الكتب.

أبحاث اليونسكو :

الشخص يتعلم كيف يقرأ ، ثم يقرأ كيف يتعلم . وقد قام اليونسكو ببحث عن الأمية فيمن تزيد سنهم على ١٥ سنة ، فتبين أن ما بين

٤٣٪ و ٤٥٪ من سكان العالم أميون . وهم يبلغون سبعمائة مليون نسمة، توزيعهم على القارات كما يلى :

٧٤٪ فى آسيا

١٥٪ فى إفريقيا .

٦ ٪ فى الأمريكتين

٥ ٪ فى أوربا .

١٠٠٪

ويتضح من تقرير اليونسكو أن أقل البلاد فى نسبة الأمية هى النمسا والدانمارك وفنلندا وألمانيا وأيرلندا والنرويج والسويد وسويسرا وإنجلترا وأستراليا ونيوزيلندا حيث تروح فى كل منها بين ١٪ و ٢٪ .

ثم اليابان وتشكوسلوفاكيا وكندا حيث تروح بين ٢٪ و ٣٪ .

ثم الولايات المتحدة وبرمودا وبلجيكا وفرنسا حيث تروح بين ٣٪ و ٤٪ .

والدول التى فيها أكبر نسبة من الأمية (بين ٩٥٪ و ٩٩٪) هى أنجولا وإيرتريا والحبشة وإفريقيا الفرنسية الاستوائية وإفريقيا الغربية الفرنسية وموزنبيق وإفريقيا الجنوبية الغربية وإفريقيا الغربية الإسبانية وعدن وأفغانستان والبلاد السعودية واليمن .

وقد جاء فى تقرير اليونسكو أن الأمى حكماً Functional illiterate هو الذى يقرأ كالأطفال الذين قضوا أربع سنوات فقط فى المدرسة ،

وغير الأمى هو الذى حصل من المهارات فى القراءة على مقدار يمكنه من متابعة العمل فى مختلف الأنشطة .

معنى هذه الأرقام :

يتضح من هذه الأرقام أن هنالك ترابطاً واضحاً بين كون الشعب متقدماً وكونه قارئاً ، وقد يقال إن الشعب تقدم أولا ثم بدأ يقرأ . ولكن هذا القول يجىء مخالفاً لمنطق الأشياء ؛ إذ المعقول أن الشعوب تتعلم ، ثم تسخر العلم فى تحقيق التقدم .

إن القراءة تنمى الفرد ، والفرد ينمى المجتمع ، ولن تكون تنمية بغير قراءة . فالقراءة هى جهاز الاستقبال الذى يفتحه القارئ على الدنيا فيغترف بعينيه ما فيها من جديد . والفرد الذى لا يقرأ يوقف التيار الفكرى الذى يربطه بالعالم ، ويحكم على نفسه بالعزلة ، وعلى عقله بالجمود ، وعلى ملكاته بالتحجر .

إن القراءة هى التى علمت الناس كيف يحلقون ذقونهم بالشفرات ويغسلون أسنانهم بالمعجون والفرشاة ، ويقطرون الدواء فى عيونهم إذا أصابها التهاب أو ألم بها غبار . وهى أيضاً التى نشرت بينهم عادات التدخين وشرب الخمور وسباق الخيل وغشيان الملاهى . لقد أصبحت القراءة معلم الجمهور الأول ، حتى ليتعذر تصور الحياة بدونها . فكيف يعرف الناس أن السير على اليمين مطلوب إذا لم يقرءوا أن هذا يحقق مصلحة

شخصية وعامة ؟ وكيف يدركون القطارات والسفن والطائرات إذا لم يقرءوا مواعيد قيامها ؟ بل كيف يتعاونون مع الهيئة الحاكمة ومع بعضهم بعضاً إذا لم يقرءوا ويفهموا ما هو مطلوب منهم فى هذا الشأن ؟ إن الحكومات لا تستطيع أن تحصل من شعوبها على التلبيات المطلوبة إذا لم تكن هذه الشعوب قارئة ، حتى ليصح القول بأن تكوين الدول صعب التصور بغير قراءة .

والذى يقرأ يقوم بعملية لازمة لزيادة كفايته الشخصية على حل مشاكل الحياة . وهو يضفى من زيادة كفايته على تحسين عمله ، فيلقى من التقدير ما يفتح له أبواب النجاح .

إن القراءة تمتاز فى هذا على معلم الفصل : فهى تعلم بالجملة وهو يعلم بالمفرق (القطاعى) : وهى لا تفرض نفسها على طلبتها وهم جمهور الشعب ، وإنما تقدم لهم الصحيفة أو الكتاب المختار كلما اشتاقت نفوسهم إليه ، فى حين يحدد المعلم موضوع الدرس ووقته ومكانه ، ثم يصبه على طريقته الخاصة فى آذان التلاميذ ، ويفرض عليهم الإنصات ساعة من الزمان أو أكثر وهم جلوس على مقعد خشبى .

وكما يكون البيع بالجملة أرخص منه بالمفرق يكون التعليم بالقراءة أرخص منه بالتدريس . وإذا كانت المدرسة لا تستغنى عن الكتاب ، فإن الكتاب قد يستغنى عنها : وكبار المفكرين من أمثال عباس محمود العقاد وكامل الشناوى لم يستمدوا من المدرسة إلا أقل القليل ، ثم بقى

الكتاب فى أيديهم يؤاخيهم ويشترك معهم فى أفراحهم ومآسيهم ، بل يدخل معهم إلى بيوتهم ومخادعهم . وبهذه الصداقة التى نشأت بينه وبينهم وترعرعت على طول الزمان ، تغلغل الكتاب برسالته فى أعماق نفوسهم فسار فى خباياها وغيّر فى مكنونها .

لقد كانت القراءة فى عهد اليونان سبيلا إلى الترف الذهنى والأحاديث الجذابة ، فأصبحت اليوم منبعاً للمعرفة ، منها نتعلم كيف نسعف المريض ، ونصلح السيارة ، ونربى الطفل ، ونسوّق السلع . . .

إن القراءة هى التى تأخذ بأيدينا اليوم إلى إنتاج أكبر ، وحياة أفضل. كانت مبدأ ثقافياً ، فأصبحت أيضاً مبدأ حسابياً .

السيد أبو النجا



هذا كتابٌ لو يباع بوزنـــه ذهباً لكان البائع المغبونا
أوَ ما من الخسران أنك آخذٌ ذهباً وتتركُ جوهراً مكنونا

شاعر قديم



عادل الغضبان

الكتاب



إن الكتاب فى تحديده المادى هو مجمع الحروف والكلمات وفى تحديده المعنوى هو الوسيط بين ذهنين ينقل من هذا إلى ذاك عصارة الفكر وخفقة القلب ويجعل بين الكاتب والقارئ مشاركة روحية يختلف أثرها باختلاف قوة طرفيها .

وشأن الكتاب فى ذلك شأن اللوح الفنى تتباين قيمته الفنّية بتباين العيون التى تراه والنفوس التى تستوعبه .

وكل ما نقل إلينا معنى من المعانى أو صورة من صور الجمال أو هزّ فينا كامن الإحساس والعاطفة يصحّ أن يسمى كتاباً . فالشفة المضطربة عند الغضب أو الخجل والعين الفصيحة النظرات عند الحب أو الكراهية كتاب نطالع فيه سطوراً خطّها القلب من وحيه ثم إن مجالى الطبيعة المتمثلة فى روض أنيق ونهر دافق وصبح بسّام وليل كالح

حروف وكلمات تنقل إلينا ما انطوى تحتها من معان وأسرار .

فأقدم الكتب إذن هو هذا الكون الذى ألفه الخالق وما برح الناس على مدى الأزمان يقرءون سطوره ويتملّون معانيه ويتلقّون عنه الوحى يسمو بأرواحهم إلى عبادة ربّهم الذى علّم بالقلم .

وشاء الله بعد ذلك أن يوحى إلى عباده بآيات الهداية والرشاد فكان الكتاب مجموعة وصاياه إليهم خطّوها على ألواح من الحجر وعلى رقّ الحيوان وأوراق البردى ثم خطّوا على هذه الصفحات كلها علومهم وآدابهم الإنسانية . ولعل أقدم الكتب التى صنعها البشر ووصلت إلينا أخبارها كتب الأموات عند المصريين وكتب مصاير روما .

وتأنق القوم على مدى العصور بالكتب فاستخدموها سجلات للشرف وأشهرها سجلّ مدينة البندقية المتضمن أسماء نبلائها وأعيانها غير أن الكتب كالبلاد والعباد فهى تسعد وتشقى حسبما تكتبه لها السماء من سعادة حظ أو شقاوة جدّ فقد كان مصير هذا السجلّ الإحراق علانية بعد خمسة قرون كان فيها معجم السادة والأشراف .

ولقد كان للكتاب شأن وأىّ شأن فى جميع العصور فهو حرز لا يتداوله إلا الكهنة وخدّام المعابد والهياكل ثم هو شىء نفيس لا يقتنيه إلا الأمراء والزعماء ثم هو أداة للتثقيف والتهذيب تزخر به المكتبات العامة والخاصة يحتفى به طلاّب العلم أولئك الذين تضع الملائكة أجنحتها لهم .
فهذا «كسرى أنو شروان» يقع له خبر كتاب «كليلة ودمنة» فلا يقرّ له قرار

حتى يبعث « برزويه » إلى بلاد الهند لاستخراج الكتاب من خزائنها وإقراره فى خزائن « فارس » . وهذا « المهلب » يقول لبنيه : يا بنىّ إذا وقفتم فى الأسواق فلا تقفوا إلا على من يبيع السلاح أو يبيع الكتب . وهذا « الجاحظ » يصف « محمد بن إسحق » أمير بغداد يوم دخل إليه وهو معزول ورآه جالساً فى خزانة كتبه بين الكتب والدفاتر فيقول : ما رأيته أهيب منه فى تلك الحال . وهذا « الصاحب بن عباد » يسافر من بلد إلى بلد ومعه حمل ثلاثين جملاً من الكتب وعندما يعرف أن « سيف الدولة » دفع ألف دينار ثمن كتاب الأغانى يستقلّ الثمن . وهذا « المتنبى » يشهد بأن خير جليس فى الزمان كتاب . وهذان أميران من أمراء الغرب يبرمان معاهدة بينهما ويشترط أحدهما فيها على الآخر أن يظفر منه بمخطوط من مخطوطات المؤرخ « تيت ليف » . وهذا « شوقى » يقول فى أحد مطالعه :

أنا من بدّل بالكتب الصحابا   لم أجدْ لى وافياً إلا الكتابا

ولئن وقف بعض علماء اللغة عند هذه الباء الداخلة على غير المتروك لقد آثر « شوقى » الكتب على الصحاب إذ وجدها لا تنقض عهدها ولا تخفر ذمامها . هذا والمفكرون فى الشرق والغرب قد أجمعوا على عدّ الكتاب صديقاً وفيًّا ظريف العشرة نافع الحديث مأمون الغيبة. أما «مرسيل بروست» فيرى أن الكتاب أفضل من الصديق وأنفع من حديث الحكماء ذلك بأن السكون الذى يحيط بنا عند القراءة يحفظ علينا تفكيرنا قويًّا

سليماً بعيداً من مؤثرات المتحدِّث فالسكون إذن ضروري لكل ما يثير فينا الفتنة والتفكير والإعجاب كما أن اللوح الفنى لا نستطيع إدراك أسراره إلا إذا تأملناه منفردين .

والحديث عن الكتاب يجرّ إلى الحديث عن القراءة . فالقراءة فى عرف « ڤاليرى » رذيلة لا يعاقب عليها وفى عرف « ديكارت » حديث مع شرفاء القرون الماضية وفى عرف «أندريه موروا» فن من الفنون . ولكلّ من هذه التعريفات وجاهتها فرذيلة القراءة كما بسطها « موروا » فى كتابه « من فنون الحياة » متوافرة فى أولئك الذين يدفعهم الجشع إلى قراءة كل ما تقع عليه أنظارهم لا يريدون بها الوقوف على الآراء والأفكار بل على صفوف من الكلمات تخفى عنهم حقيقة العالم وحقيقة نفوسهم كمدخن الأفيون لا يلتمس من وراء تدخينه إلا الهرب من عالم الحقيقة إلى عالم الأوهام والأحلام . على أن قراءة المتعة هى التى يتفقد فيها القارئ صور الجمال ونزوات العاطفة وغريب الحوادث فى حين أن قراءة الفائدة هى التى يبحث فيها القارئ عن مستكملات ثقافته وعناصر تهذيبه .

ومهما أوتى الإنسان من عبقرية فقد تجفّ نضارتها فيه إن لم يتعهدها برىّ القراءة وقديماً حفل الرومان بالقراءة العلنية فكان العبد يقرأ لسيده بصوت عال وكان العالم أو الأديب إذا فرغ من تأليف كتاب من الكتب قرأه على نخبة من قومه قبل نشره وبقيت هذه العادة مستحكمة طول القرن الأول بعد الميلاد وقيل مثل هذا فى حوليات « زهير بن

أبي سُلمى» وجرى مثله فى أندية الغرب الأدبية . ولئن كانت القراءة فنّاً من الفنون إنها كذلك مصدر الإيحاء إلى الفن فى متاحف « اللوفر » و « بركسل » و« لكسمبرج » ألواح فنية لأمهر الرّسامين تمثل القراءة والقارئين .

إن الكتاب العربى اليوم على تنوع موضوعاته واختلاف قيمه أصبح فى متناول كل قارئ والشعوب العربية على تفاوت عدد المتعلمين فيها قد أقبلت على القراءة إقبالاً سيزداد يوماً بعد يوم والمؤلفين العرب نشاطهم فى التأليف مشهود ملموس ودور النشر قديمها وحديثها ملحوظة العناية بنشر الكتب فلم يبق إلا أن يعرف القارئ كيف يختار قراءاته معرفته اختيار أصدقائه .

والشعر ولا شك صديق حميم فهو أنيس الروح ونديم القلب وجناح الفكر يجلو للقارئ مواطن السحر والجمال ويحرّك فيه كوامن الشعور ويرقى بفكره على أجنحة الخيال إلى مصادر الإلهام فيسير به فى شعابه المتألقة بالنور والضياء متنقلاً من روعة إلى روعة ومن عجب إلى عجب .

وللشعر مفاخر ومآثر ألممنا ببعضها فى حديث متخيَّل أجريناه بين الشعر والقارئ ونظمناه فى القصيدة التالية :

الشعر والقارئ

تجلى الشعر للقارئ ذات مساء في
صورة غادة حسناء متشحة بالنور
فجرى بينهما هذا الحوار :

الشعر

يَا صَدِيقِي وَصِنْوَ نَفْسِي سَلَامَا
مُعَطَّرَ النَّشْرِ
جُزْتُ فِي مَهْبِطِي إِلَيْكَ الْغَمَامَا
وَمَعْقِلَ النَّسْرِ
أَنَا رَوْحُ النُّهَى وَرَاحُ النَّدَامَى
وَرَوْضَةُ الْفِكْرِ
إِنْ أَرَدْتَ الْحَيَاةَ أَحْلَى ابْتِسامَا
مِنْ بَسْمَةِ الْفَجْرِ
فَاحْسُ مِنْ رُوحِ كَرْمَتِي الْإِلْهَامَا
وَاسْكَرْ بِلَا خَمْرِ
تَحْيَ فِي غِبْطَةٍ وَتَسْعَدُ عُمْرَا

القارئ

أَنْتِ مَنْ أَنْتِ. إنْ أَجَبْتِ سُؤالِي
بَدَّدْتِ أَوْهَامِي
هَلْ تكُونِينَ فِي سَعِيدِ اللَّيَالِي
طَيْفاً لِأَحْلَامِي
صَوَّرَتْهُ لِلْعَيْنِ كَفُّ الْخَيَالِ
فِي فَنِّ رَسَّامِ
فَتَرَاءَى بِحُسْنِهِ الْمُتَلَالِي
وَرُوحِهِ السَّامِي
فَاتِناً مُهْجَتِي بِسِحْرِ الْجَمَالِ
وَمَالِئاً جَامِي
مِنْ شَهِيِّ الْحَدِيثِ خَمْرًا وَعِطْرًا

الشعر

أَنَا فِي عَالَمِ الصَّبَابَةِ نَجْوَى
لِلْعَاشِقِ الصَّبِّ
يَتَغَنَّى بِي كُلَّمَا نَالَ حُظْوَى
فِي دَوْلَةِ الْحُبِّ
فَإِذَا خَابَ فِي هَوَاهُ وَأَهْوَى
فَرِيسَةَ الْكَرْبِ
يَصْدَعُ اللَّيْلَ نَائِحاً يَتَلَوَّى
مُحَطَّمَ الْقَلْبِ
رُحْتُ أُنْسِيهِ كُلَّ هَمٍّ وَبَلْوَى
بِمَنْطِقِي الْعَذْبِ
وَأُحِيلُ الْجَوَى سُلُوًّا وَصَبْرَا

القارئ

أَنْتِ مَنْ أَنْتِ يَا نَعِيمَ الْقُلُوبِ

وَنُزْهَــةَ النَّفْسِ

والْأَرِيبُ الْعَلِيمُ سِرَّ الْغُيُوبِ

فِى السَّعْدِ وَالنَّحْسِ

تَسْتَثِيرِينَ عِنْدَ وَصْلِ الْحَبِيبِ

بَلَابِلَ الْأُنْسِ

وتُعَزِّينَ كُلَّ عَانٍ كَئِيبِ

يَعِيشُ فِى يَأْسِ

أَنْتِ مَنْ أَنْتِ أَىُّ رُوحٍ عَجِيبِ

فِى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ

حَلَّ بُرْدَيْكِ يَخْلُبُ اللُّبَّ سِحْرَا

الشعر

أَنَا مَجْلَى الطَّبِيعَةِ الْفَتَّانَهْ
وَحُسْنِهَا الْبَاهِرْ
أَعْكِسُ الْحُسْنَ لَاحَ فِى كُلِّ بَانَهْ
وَمَشْهَدٍ سَاحِرْ
وَصَبَاحٍ صَحَا يَبُثُّ جُمَانَهْ
فَوْقَ الثَّرَى الزَّاهِرْ
وَسَمَاءٍ بِشُهْبِهَــا مُزْدَانَهْ
وَبَدْرِهـــا السَّاهِرْ
صُوَرٌ مِنْ جِنَانِهِ سُبْحَانَهْ
تَسْبِى نُهَى النَّاظِرْ
وَتَزِينُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ طُرًّا

القارئ

أَنْتِ مَنْ أَنْتِ يَا رَئِيَّةُ هَلَّا
أَفْصَحْتِ عَنْ حَالِكْ
طَارَ كَالظَّنِّ خَاطِرِى مُسْتَقِلاًّ
جَنَـــاحَ أَقْوَالِكْ
يَتَمَلَّى الضِّيَاءَ يَهْطِلُ هَطْلاً
مِنْ فَيْضِ سَلْسَالِكْ
وَيَرَى الْبَدْرَ فِى حَدِيثِكِ هَلاًّ
يَمْحُوالدُّجَا الْحَالِكْ
فَكَأَنِّى بِروحِ حَوَّاءَ حَلاًّ
جَمِيلَ أَوْصَالِكْ
بَجْتَلِي رَوْضَةً وَيَرْتَادُ نَهْرَا

الشعر

أَنَا يَا صَاحِ مُنْذُ فَجْرِ الزَّمَانِ
صَنَّــاجَةُ الْمَجْدِ
عِشْتُ بَيْنَ الْمُلُوكِ وَالرُّعْيَانِ
خَفَّــاقَةَ الْبَنْدِ
وَاسْتَمَدَّتْ إِلْهَامَهَا أَلْحَــانِي
مِنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ
كَانَ شَدْوِي يَوْمَ الْوَغَى وَالطِّعَانِ
أَلْهُــوبَةَ الْأُسْدِ
وَلَدَى النَّصْرِ كَانَ سِحْرُ بَيَانِي
قِيثَــارَةَ السَّعْدِ
يَمْلَأُ السَّمْعَ وَالْجَوَانِحَ بِشْرًا

القارئُ

أَنْتِ مَنْ أَنْتِ يَا سَمَاءَ الْفَخَارِ
وَكَوْكَبَ الْحُسْنِ
أَخَذَتْ عَنْ مَـآثِرِ الأَحْرَارِ
روَائِـعَ الْفَنِّ
وَتَبَارَتْ وَجَـوْقَةَ الأَطْيَـارِ
فِى مِنْبَرِ الْغُصْنِ
وَمَشَتْ فِى مَـدَارِجِ الأَقْمَارِ
خِـدْناً إِلَى خِدْنِ
مَنْ تَكُونِينَ أَنْتِ أَىُّ مَنَارِ
جَلَاكِ فِى جَفْنِى
آيَةً أَسْبَغَتْ عَلَى الْفَجْرِ فَجْرَا

الشعر

أَنَا فِي مَسْبَحِ النُّجُومِ جَنَاحُ
مُحَلِّقٌ سَابِحْ
حَوَّمَتْ حَوْلَ مَوْكِبِي الْأَرْوَاحُ
حَوْمَ الْقَطَا السَّارِحْ
يَصْطَفِينِي الْأَمِيرُ وَالْفَلاَّحُ
وَالْعَـامِلُ الْكَادِحْ
فَمَعَـانِيَّ بَيْنَهُمْ أَلْوَاحُ
تُتْلَى بِلاَ شَارِحْ
هِيَ لِلْقَلْبِ مُتْعَةٌ وَمَرَاحُ
وَسَهْمُهُ الــرَّابِحْ
وَهْيَ وَحْيٌ سَمَا بِهِ الْفَنُّ قَدْرًا

القارئ

أَنْتِ مَنْ أَنْتِ يَا رِبَاطَ الْعَشِيرِ
وَزِينَــةَ الْمَجْمَعْ
تَتَهَادَيْنَ بَيْنَ عَالِي الْقُصُورِ
وَالْكُــوخِ وَالْمَرْبَعْ
وَتُنَادِينَ كُلَّ سَامِي الشُّعُورِ
فَيُرْهِفُ الْمَسْمَعْ
لِلْخَفِيَّيْنِ فِي حَنَايَا الصُّدُورِ
لِلْهَمِّ وَالْمَطْمَــعْ
وَتَعُودِينَ مِنْــهُ خَيْرَ سَفِيرِ
أَفَادَ وَاسْتَوْدَعْ
جَنَبَاتِ النُّفُوسِ حِلْماً وَبِرًّا

الشعر

أَنَا بِنْتُ الْعَلَاءِ وَالْمَدَنِيَّهْ
تُزْهَى بِهَا الْأَوْطَانْ
زِنْتُ تَاجَ الْإِغْرِيقِ فِى الْوَثَنِيَّهْ
وَعَزَّ بِى الرُّومَانْ
وَبَنَى الْعُرْبُ لِى قِبَاباً عَلِيَّهْ
مِنْ خَالِصِ الْعِقْيَانْ
بَيْنَ شَرْقِيَّــةٍ وَأَنْدَلُسِيَّهْ
لَمْ يَحْوِهَا إِيوَانْ
وَحَبَانِى الْعَصْرُ الْجَدِيدُ حُلِيَّهْ
وَصَاغَ لِى التِّيجَانْ
ضَاءَ فِيهَا الْحِجَى عَقِيقاً وَدُرًّا

القارئ

رَبَّةَ الْمُعْجِزَاتِ بِاللهِ قُولِي
مَنْ أَنْتِ فِي النَّاسِ
هٰذِهِ النَّفْسُ فِيكِ نَفْسُ رَسُولٍ
حُفَّتْ بِأَقْبَاسِ
تَغْمُرِينَ الْقُلُوبَ فِي كُلِّ جِيلٍ
بِمَوْجِ إِحْسَاسِ
وَتَقُـــودِينَهَـــا إِلَى التَّرْتِيلِ
بِلَحْنِ أَقْدَاسِ
وَتُحَلِّينَ كُلَّ قَفْرٍ سَبِيلٍ
بِالْـــوَرْدِ وَالْآسِ
فَأَبِينِي كَفَاكِ سِرًّا وَسَتْرًا

الشعر

أَنَا فِي الْأَرْضِ صَوْتُ أَهْلِ السَّمَاءِ
مَا أَقْدَسَ الْمَصْدَرْ
أَسْتَقِي الْوَحْيَ مِنْ مَعِينِ الضِّيَاءِ
وَصَفْـــوَةِ الْكَوْثَرْ
ثُمَّ أُوحِي بِهِ إِلَى الْعُظَمَاءِ
مِنْ سَاكِنِي عَبْقَرْ
فِي سَنَا النَّجْمِ فِي شَجَا الْوَرْقَاءِ
فِي نَغْمَةِ الْمِزْهَرْ
فِي حَفِيفِ الرُّبَا وَشَدْوِ الْمَاءِ
بِالْمَوْكِبِ الْأَخْضَرْ
إِنَّنِي الشُّعْلَةُ الْمُسَمَّاةُ شِعْرًا

عادل الغضبان



الدكتور جمال الدين العطيفى

القراءة والرأى العام



الصلة وثيقة بين القراءة والرأى العام . فالرأى العام الذى يعبر عن فكرة تسيطر على جماعة معينة ويحس أفرادها بأن هذه الفكرة تربطهم جميعاً ، يتولد نتيجة القراءة .

وهذا الرأى العام كان قائماً فى جميع العصور . كان معروفاً فى أثينا القديمة وفى روما حيث كان يعبر عنه بصوت الشعب . وفى المسرحية المعروفة « هنرى الرابع » أشار شكسبير على لسان هنرى الرابع إلى الرأى العام الذى ساعده على الوصول إلى العرش . والفيلسوف لوك اعتبر قانون الرأى أو السمعة ، قانوناً للمجتمع مثل القانون الإلهى والقانون المدنى . غير أن العصر الحديث بما استحدث من وسائل فنية للاتصال بالجماهير قد قوى فيه سلطان الرأى العام .

ورغم أن القراءة لم تعد هى الوسيلة الوحيدة لتكوين الرأى العام ،

فإلى جانبها نشأت الوسائل الحديثة للاتصال بالجماهير — مثل الإذاعة والتلفزيون والسينما — فإنها ما زالت أخطر هذه الوسائل . و يزداد تأثيرها بالقدر الذى تمحى به الأمية .

والكتاب بوجه خاص ، لا يزال أقوى وسائل التأثير . فالكتاب يبقى بين يدى صاحبه ، يطالعه على مهل وفى تؤدة وتأمل . وهو لا يفترق عنه إلا وقد نشأت علاقة إنسانية بينه وبين الكاتب . إنه ليس كالكلمة المذاعة أو الصورة المرئية التى لا يمكن الاحتفاظ بها . إن الكلمة المقروءة تبقى دائماً مع القارئ ، يتلوها ويعود إليها مردداً لها ، والإثارة فيها لا تفلح مثلما قد تفلح فى الكلمة التى تذاع أو فى الصورة التى تعرض ، لأنها تخاطب فى روية عقلاً هادئاً متأملاً يمكنه أن يميز فيما يطالعه بين الحقائق والأراجيف وبين الرأى الحر والرأى الفاسد ، وبين الدراسة الموضوعية والعرض المغرض . ولذلك فإن الكلمة المذاعة أو الصورة المرئية لا يمكن بمفردها أن تخلق رأياً . إنها قد تثير الجموع وقد تعبر عن نزعات فطرية مثل الخوف أو الشفقة أو القسوة . ولكن الجموع التى تستمع إليها أو تراها لا تصدر عنها أحكام يمكن تنظيمها وربطها وخلق رأى محدد منها . بل هناك عواطف تموج قد تثور اليوم ، ثم تعود فتهدأ غداً .

أما الكتاب فهو يخاطب عقل القارئ . إن صاحب الرأى لا يمكن أن يفرض رأيه بالقوة ولا تفلح فيه الإثارة ولكنه يدعو إلى قبوله بالمنطق

والإقناع . فالقارئ حينما يجلس إلى الكتاب يتحول إلى ناقد يقلب وجوه المشكلة المطروحة عليه . ولقد يكون رأى القارئ من صنع الكاتب ، غير أنه لا يفقد استقلاله عن الكاتب . بل إنه كثيراً ما يفرض ذوقه عليه .

إن جمهور الكاتب قد يكون أقل انتشاراً ولكنه أكثر ثباتاً . وأفراده وإن كانوا لا يعرفون بعضهم ، فإن مجموعة من الأفكار التي يبشر بها الكاتب قد تجمع بينهم ، والرأى يجعل من هؤلاء القراء جمهوراً .

فالقراءة هي الوسيلة التي يتكون بها الرأى العام ، والكتاب أداة لتوجيه هذا الرأى العام . فهو ينبهه ويحرك مشاعره ويفرض عليه منطقه .

فكتاب دار المعارف يصل إلى قرائه بسرعة فى أى مكان فى العالم فيولد نوعاً من التوافق فى الأفكار . ففى عصر الجماهير الذى نعيش فيه لا يمكن إغفال أهمية الدور الذى يقوم به الكتاب فى توجيه الرأى العام . ومن هنا ينشأ ما يمكن تسميته بفن العلاقات الإنسانية حيث يلعب الاتصال والإقناع دوراً بارزاً .

وإذا كانت زيادة توزيع الكتاب هى التى تخلق الرأى وتدعمه وتمده إلى آفاق عالمية ، وإذا كان الرأى العام هو الجهاز الذى تقاس به القيم الاجتماعية ، فإن هذا الجهاز يجب أن يكون مصوناً من العوامل المصطنعة . ومن هنا تأتى مسئولية الكاتب والتزامه . إن قارئه قد يتحول

إلى ناقد له . كما تأتى مسئولية الناشر . إن الناشر ليس مجرد طابع أو موزع ، وليس الربح هو هدفه . ولكن الربح هو المقياس الذى يقاس به نجاح الكتاب ويحصى به جمهور قرائه . فلا قيمة لرأى لا يجد قارئاً . ولكن يجب ألا يفهم من ذلك أن جمهور أى كاتب هو كل جمهور القراء . فلا يشترط فى الرأى ليكون عامًّا أن يكون رأى مجموع الشعب . بل إن الرأى العام قد يتولد بين فئة متخصصة . ولا يقدح اقتصار القراءة على هذه الفئة فى قيمة الكتاب أو الرأى .

ولكن الرأى العام قد يتسع فيشمل أكبر عدد من القراء . . . بل إنه قد يصبح رأياً عامًّا عالميًّا . وفى هذه الحالة يخاطب الكتاب القارئ العادى ولا يتطلب التخصص . إن قارئه قد يكون عاملاً أو فلاحاً أو جنديًّا أو مثقفاً أو طالباً أو ربة بيت . . . وفى ميدانى الثقافة العامة والثقافة المتخصصة ، يلعب الكتاب دوراً هامًّا فى خلق الرأى العام .

وإذا كنا لا يمكن أن نتصور الرأى العام إلا بين القراء البالغين ، فيجب ألا نغفل عن أهمية القراءة بالنسبة للصغار والناشئة . إن الصغير يتقبل ما يطالعه على أنه من المسلّمات وينفعل له ويتأثر به . وهو فى سنه الصغيرة لا يمكنه أن يصدر حكماً على سلامة الرأى الذى يعرض عليه .

ويكبر الصغير وتنمو مداركه ، ولكن الآراء والأفكار والحكايات الصغيرة التى طالعها فى طفولته تظل عالقة فى ذهنه ، وهى بذلك تلعب

دوراً هاماً بطريقة غير مباشرة فى تكوين الرأى العام للجيل الجديد . ومن هنا كانت مسئولية كتاب الأطفال ، أشد خطورة فى التزام قيم المجتمع والمبادئ التى يسعى إلى تحقيقها .

إن الكتاب الرشيد الملتزم يولد رأياً عاماً رشيداً ملتزماً . إنه لا ينحرف ولا يخلق ولا يفرق . بل إنه يناقش وينقد فى موضوعية جادة .

جمال الدين العطيفى

كان الحسن بن على بن أبى طالب يقول لبنيه وبنى أخيه : تعلموا العلم فإن لم تستطيعوا حفظه فاكتبوه وضعوه فى بيوتكم .

* * *

إننى أفضل أن أكون فقيراً ساكناً فى كوخ وحولى الكتب الكثيرة على أن أكون ملكاً لا يميل إلى المطالعة .

مكولى

ليس المدامةُ مما أستريحُ له ولا مجاوبة الأوتار والنغم

وإنما لذّتى كتْبٌ أطالعها وخادمى أبداً فى نصرتى قلمى

أحمد بن رضا المالقى



الدكتور إسماعيل صبري عبد الله

القراءة والعلم



إذا قال المرء : « بالعلم تتقدم الأمم » أشاح البعض استهزاء ، وتبسم البعض الآخر فى تسامح ، ولسان حال الجميع : أنت تردد عبارة مأثورة شائعة بين العديد من مثيلاتها التى تزدهر بها « حدائق الإنشاء » .

ومع ذلك كم واحداً منا يتأمل هذا القول المردّد ويتمثل مغزاه البعيد ؟ وكم واحداً منا يمارسه خارج نطاق التعلُّم والتخصص حيث يختلط طلب العلم بطلب الرزق ، وحيث تكون المعرفة المحددة مهنة مميزة ينتمى أصحابها إلى « كادر » وتجمعهم نقابة ؟ ولا شك أن الدهشة لا بد أن تتملك الكثير من الناس إذا بلغهم أن آخر ما وصل إليه علم الاقتصاد فى تعبيراته الدقيقة والمعقدة وفى ختام تحليلات رياضية راقية ورائعة ، يلتقى تماماً مع الحكمة السائرة والعبارة المأثورة . فعلماء الاقتصاد يبرزون اليوم أن المعرفة بجوانبها الثلاثة : الثقافة والعلم والتكنيك ، هى العنصر الاستراتيجى

فى التنمية الاقتصادية . فتوافر الثروات الطبيعية لا يكفى لإثراء الأمم ورفع مستوى معيشة الشعوب . فتلك الثروات فى الأرض منذ أن وجدت الأرض، وبالعلم وحده أمكن أن يضع بطن الأرض بعض ما تحمل فى أحشائها ، وأمكن أن يشكل الإنسان مما تضعه من صلب وسائل متاعاً هو بهجة حياته الحديثة .

بل إن المال – أو رأس المال – لا يحدث بذاته التنمية . فكم من ملك عمرت خزائنه بأموال قارون وشقى شعبه وانهار ملكه ! إن العنصر الفعال الذى يخرج الثراء من الأرض ويحوّل المال من موات الخزائن إلى دم حى يسرى فى عروق الاقتصاد حيوية ونشاطاً هو عمل الإنسان . ولكن قوة الإنسان العضلية محدودة ، إنه أبعد ما يكون عن أن يكون أقوى حيوانات الغابة .

ولو كانت القوة المادية وحدها هى الحكم لانقرض البشر من على سطح الأرض كما انقرضت من قبل طوائف كثيرة من الحيوان كانت تبزه جسداً . إن ما يميز الإنسان عن كل الكائنات التى تحفل بها الأرض أمران على أعظم قدر من الأهمية : العقل ، أى القدرة على المعرفة ، على استخدام المدارك الحسية بطريقة منظمة والربط بينها بعلاقات معينة بعكس الحيوان الذى يتحرك بالغريزة وحدها ؛ والمجتمع الذى لا يعيش الإنسان إلا به ، والذى بفضله تصبح المعرفة ظاهرة اجتماعية يشارك الجميع فى تكوينها فتصبح حصيلتها أعظم من أى معرفة فردية

فى الوقت الذى يستطيع .فيه كل فرد أن يستفيد من مجموع ما حصله المجتمع . فبهذه المعرفة الجماعية يستطيع الإنسان أن يضفى على قوته العضلية المحدودة أضعاف أضعاف ما لها من فعل ، فيحوّل الأنهار ويحرّك الجبال ويمتطى البحر والجو — حتى إذا ضاق عنه البر والبحر والجو جميعاً ملأ الفضاء سفيناً .

وليس الأمر فى هذا بمقصور على تلك الشعوب التى تعانى الفقر والتخلف . بل إن أعظم الدول تقدماً تدرك اليوم أكثر من أى وقت مضى أن المعرفة هى الأساس الصلب الذى قامت عليه حضارتها وانبنى تقدمها وتفوقها .

وهذا التقدم نفسه بما أفضى إليه من إطلاق قوى جبارة من أصغر الكائنات وإحداث صناعات جديدة يقتضى العمل فيها من أبسط عامل قدراً كبيراً من المعرفة ، قد جعل تطوير المعرفة بشكل مستمر والعمل على نشرها على أوسع نطاق أمراً لا غنى عنه لاطراد التقدم . ولم تعد تلك الدول تقنع بجهدها الخاص ، بل سعت إلى تنظيم التعاون فيما بينها أحياناً ، وأخذت تتصارع فى ميدان العلم أحياناً أخرى . ومن المعروف أن النهضة الصناعية الحالية فى الولايات المتحدة الأمريكية قد استفادت إلى حد كبير من هجرة مئات العلماء من أوربا فراراً من النازية والفاشية . ومن المعروف أن دول أوربا الشرقية والصين قد بذلت كل جهد لاسترداد علمائها الذين كانوا قد استقروا فى دول الغرب . وكلنا يذكر الضجة التى

اهتزت لها بريطانيا على أثر هجرة عدد كبير من علمائها إلى الولايات المتحدة . . . وفى هذا يقول بعض الاقتصاديين : إن الصراع بين الدول الكبرى حول العلم والعلماء قد احتل اليوم المحل الذى كان للصراع حول مصادر المواد الأولية فى القرن الماضى .

العلم ثمرة الجهد اجتماعى :

وقد يظن البعض أن محور الحديث كله هو العالم الفذ الذى يبز أقرانه جميعاً ويصل إلى كشوف تعتبر فتحاً جديداً ويمكن أن تظل أسراراً تحوطها الدولة بسياج من الغيرة ، ولكن هذا الظن لا يعدو أن يكون نظراً سطحيًّا للأمور . فالكشوف العلمية ليست ظواهر قدرية يلهمها الموعودون. إن كل كشف علمى هو ثمرة جهود مضنية بذلها العلماء من مختلف البلدان جيلاً بعد جيل ، ثمرة لا يمكن تصورها بغير الشجرة التى تزهر على أغصانها وبدون ما لها من جذور عميقة تتشعب فى المكان وتضرب سحيقاً فى أبعاد الزمن . بل إن العالم الفذ اليوم ليس إلا قائد فصيلة من الباحثين يجهدون جميعاً ويكدون ويبذلون فى خدمة العلم حياتهم . ومن ناحية أخرى يقوم البحث العلمى على الاستعانة بأجهزة معقدة كما يستلزم نفقات باهظة . والمجتمع هو الذى يوفر هذه وتلك ، وهو لا يقدر على هذا إلا إذا بلغ مستوى معيناً من التقدم الثقافى والاقتصادى . وكثيراً ما يهاجر العالم من بلد إلى بلد ، لا سعياً وراء كسب مادى ، ولكن لأن البلد الذى يهاجر إليـــه يوفر له إمكانيات البحث . إن الجو الثقافى

العام المتقدم ونشاط الأبحاث العلمية فى مجموعها والاهتمام بالعلم والعلماء ، هى عناصر البيئة الصالحة لانبثاق الكشوف العلمية . ومن ناحية أخرى ، إن أعظم الكشوف العلمية يمكن أن يظل أعجوبة عقلية إذا لم يرتبط بتقدم حضارى عام يجعل من الممكن تحويل نتائجه إلى تكنيك يغير وجه المجتمع . لقد اكتشفت الصين فكرة الطباعة قبل جوتنبرج بعدة قرون فلم تستخدمها إلا فى صناعة « أوراق اللعب » ، فى حين أدى اكتشاف جوتنبرج إلى ثورة ثقافية هزت المجتمع الأوربى من جذوره ... وخلاصة هذا كله هو أن المعرفة ظاهرة اجتماعية ، والعلم ظاهرة اجتماعية ، وأن التقدم الحضارى لا يمكن أن يكون نتاجاً لجهد قلة من العلماء الأفذاذ – لو تصورنا إمكان وجود هذه القلة فى بلد متخلف – وإنما هو دائماً ثمرة تطور ثقافى عام إن لم يشمل المجتمع بأسره فهو يشمل على الأقل أغلب أفراده .

اكتشاف القراءة :

المعرفة إذن هى محرك التقدم . ووعاء المعرفة هو الكتاب . والسبيل إلى المعرفة هى القراءة . لقد اتفق رأى العلماء على أن يقسموا حياة البشر على سطح الأرض إلى فترتين . فالفترة الأولى امتدت عشرات الألوف من السنين ، ويطلق عليها اسم ما قبل التاريخ . أما الفترة الثانية فلا يعدو عمرها الآلاف القليلة وهى وحدها التى يتكون منها التاريخ . والحد الفاصل بين التاريخ وما قبل التاريخ ، الحد الفاصل بين الحضارة وما قبل الحضارة

على نطاق الأرض كلها بشعوبها وأجناسها وأجوائها المتعددة والمتنوعة ، ليس موقعة حربية عظمى ، وليس مولد إمبراطورية أو انهيارها ، وليس حدثاً طبيعيًّا كزحف الجليد أو تراجعه ، وإنما هو حدث حضارى محض : اكتشاف الكتابة ، أو بعبارة أخرى اكتشاف القراءة .

ولم يقع الاختيار على هذا الحدث دون غيره كفيصل بين ما قبل التاريخ وبين التاريخ بالتأسيس على اعتبارات عملية خالصة تتمثل فى أن الكتابة مكنت الشعوب التى عرفتها من أن تترك لنا حديثاً عن حياتها كما عاشتها وكما تصورتها ، فى حين أن عالم الآثار وعالم الأجناس أو غيرهما من العلماء يتعين أن يستنطقوا الآنية والأثاثى ويؤولوا ما ينقبون عنه من رسم دارس ليلقوا قليلا من الضوء على حياة الشعوب فيما قبل التاريخ. فالحديث المكتوب ليس بالضرورة حديثاً غير مكذوب ، وتوافره لا يغنى العالم المحقق عن أن يمتحن صدقه بالمقارنة بين محتواه وبين ما تحكيه أطلال المعابد أو ترويه آثار البلاد المجاورة . وتقدم وسائل البحث العلمى ، وبصفة خاصة استخدام الأشعة والتحليل الكيميائى ونتائج أبحاث علم الأجناس المقارن وعلم الإنسان، تجعل اليوم الكثير من أسرار المجتمعات البائدة فى متناول الباحث . . .

إن الدلالة الحضارية لاكتشاف الكتابة دلالة ذات أبعاد ضخمة ومتعددة ، إنها تمثل بحق بدء مرحلة حضارية مختلفة جوهريًّا عن كل ما سبقها .

المعرفة سجل مفتوح :

بالكتابة أخذ الإنسان يدوّن على الحجر هشًّا أو صلباً ، وعلى جلد الحيوان ، وعلى أوراق النبات ، وعلى ماصنعت يداه من نسيج صوف أو كتان ، محصوله من المعرفة : ما تلقاه مشافهة عن السلف ، وما تعلمه من تجربته ، وما هداه إليه تفكيره . وبالقراءة لم يعد فرضاً على كل إنسان (أو كل جماعة من البشر) أن يبدأ معرفته من الصفر ، بل أصبح بوسعه أن يستأنف من حيث انتهى من سبقه . وهكذا أصبحت المعرفة البشرية نسيجاً متصلاً عبر القرون ، يتعاقب النساجون وتتفاوت مهارتهم ، ويتباينون تقليداً وإبداعاً ، ولكن النسيج لا ينقطع أبداً ما دب على سطح البسيطة بشر .

بالكتابة والقراءة أصبحت المعرفة البشرية سجلا عظيماً : طالعته عبر التاريخ شعوب عديدة ، كان لبعضها فضـــل تسطير صفحات منه أو أبواب كاملة . أخذ اليونان عن حضارة مصر والشام وما بين النهرين بل فارس والهند ، ثم أثروا هذا التراث فى عبقرية ، وكانت مدينة الإسكندر هى البوتقة التى انصهر فيها كل ذلك وخرج منها أعظم ما خلفه لنا العالم القديم . ثم أخذت روما عن مدرسة الإسكندرية وزادت على ما أخذت ونشرت تلك الحضارة فى حوض البحر الأبيض المتوسط كله . ثم دخل العرب تاريخ البشرية كشعب يتميز بقدرة فائقة على تمثل الحضارات وهضم الثقافات يبنى حضارة تمتزج فيها الشعوب فى ظل مساواة

لم يعرفها مجتمع قبله فينشط الجهد الثقافى ويزدهر البحث العلمى . ومن تعاليم الإسلام وثقافة اليونان وفارس والهند يقدم العرب للعالم كنوزاً جديدة من المعرفة. والأمر الغريب الذى ينبغى أن نتأمله هو أن ثقافة اليونان التى لعبت دوراً عظيماً فى تقدم الفكر والبحث عند العرب كانت فى خزائن بيزنطة التى أخذت دولتها فى الانهيار . وعندما سقطت مدينة قسطنطين فى يد محمد الفاتح ووفد علماؤها بمخطوطات الإغريق إلى أوربا ، كانت هذه الثروة الفكرية هى الزاد الثقافى الذى ترعرع عليه عصر النهضة . وليس أدل على ذلك من أن الثقافة إذا ظلت محفوظة لدى قلة بمعزل عن حركة المجتمع فإنها لا تغنيه ولا يغنيها ، بل تبقى كأحجار كريمة فى جوف قبر يعلوها التراب .

الكتاب العلمى العربى :

ولقد فعلنا نحن العرب صنيع أهل بيزنطة ، فتركنا جانباً الدرر التى خلفها لنا أسلافنا الأمجاد . وأحرق الحكام كتب ابن رشد فى حين ولدت الفلسفة الأوربية من جديد عن يد تلميذه القديس توماس الأكوينى . ولم يجد الخوارزمى وابن الهيثم والبيرونى والشريف الإدريسى وابن حوقل وجابر بن حيان وابن خلدون طوال بضعة قرون الخلف الصالح الذى يوالى أبحاثهم عن الرياضة والفلك والجغرافيا والفيزياء والكيمياء . ولقد دفعنا ثمن ذلك غالياً : قروناً من الظلام والتخلف أصبحنا بعدها عالة على غيرنا .

واليوم ونحن نحاول أن نسترد مكاننا بين شعوب العالم لا بد أن

نذكر دائماً أن حضارة العرب كانت قائمة على الثقافة والعلم ولم تكن قائمةعلى السيف ،وإلا ضاع ذكرها كما ضاع ذكر غيرهامن الإمبراطوريات التى قامت على السيف وحده فما إن فل حده حتى طواها التاريخ فى نسيان مطبق .

نعم ، إن عملنا الوطنى والقومى لا بد أن يتسلح بالعلم فنحن نريد أن نبنى الصناعة ، ولا يمكن أن نعتمد بشكل دائم على الخبرة المستوردة والآلة المستوردة . فلن يستقر بناؤنا الصناعى على أسس متينة إلا حين يكون لدينا عمالنا المهرة ومهندسونا الأكفياء وعلماؤنا المجددون، لأنه بهؤلاء جميعاً نستطيع أن نبتكر ونبدع ، وأن نطوّع فنون الإنتاج الصناعى لظروفنا وألا ندفع للعالم المتقدم جزية تخلفنا فى شكل أجر خبراء ومقابل براءات اختراع وأثمان آلات لا نستطيع إنتاجها محلياًّ . ونحن نريد أن نطور الزراعة لنخرج بها من طابعها الرتيب الذى تأخر عن سير الزمن . ولا سبيل لذلك إلا بالعلم وفنون الإنتاج الحديثة . ونحن نريد أن نقيم مجتمعاً اشتراكياًّ ونناضل من أجل الوحدة القومية . ولكن يجب أن نتذكر تلك الحقيقة التى أشار إليها الرئيس جمال عبد الناصر فى أكثر من مناسبة : إن الثورة علم ، هى علم التغيير الاجتماعى .

نعم ، علينا أن نتعلم وأن نستزيد علماً بنفس الإصرار الذى يبديه الجندى الباسل حين يدافع عن الوطن أو العامل الواعى حين يدفع بعجلة الإنتاج . فالعلم بالنسبة لنا ليس ترفاً بل إنه سلاحنا الأساسى فى معركتنا

الوطنية والقومية والاجتماعية . وليس العلم هو وحده ما تقدمه لنا المدرسة ، بل إننا لا نغالى إذا قلنا إن المدرسة تعلمنا كيف نتعلم . إن الكتابة مخزن المعرفة ، والقراءة مفتاح بيت الكنوز هذا . ومعنى ذلك أن القارئ العربى عليه ألا يقنع بما لقنه المعلمون والأساتذة . عليه أن يتذكر فى حدود تخصصه أنه « ما زال أحدكم عالماً ما طلب العلم ، حتى إذا ظن أنه علم فقد جهل » وعليه أن يتذكر أن التخصص وإن عمق معرفته بجزء من العلم يحد أفقه ولا يجعل منه مثقفاً له المدارك العقلية الواسعة التى لا بد منها حتى يصبح فى تخصصه عالماً مبرزاً . ومن ثم فالقراءة فى فروع العلوم الأخرى ، بل فى فروع المعرفة الأخرى ليست أمراً جوهرياً فى تكوين المثقف ، بل حتى فى تكوين المهندس النابغ ، والفيزيائى المبرز ، والطبيب الألمعى ، والكيميائى الذى لا يشق له غبار . إن القراءة بالنسبة للمتعلمين ليست مجرد تسرية تجد سبيلها فى بعض ألوان الأدب فحسب ، بل إنها تربية لا غنى فيها عن الكتاب العلمى . وعلى العالم العربى فى هذا الصعيد واجب تقديم العلم لأبناء وطنه وتيسيره لغير المتخصصين ليكون لنا أدبنا القومى فى كل فروع العلم ولا نعيش عالة على ما نقرأ بلغة أجنبية أو ما نترجم لمؤلفين أجانب .

إسماعيل صبرى عبد الله



حلمي مراد

متى وكيف وماذا نقرأ ؟



« القراءة تمد العقل بمادة المعرفة .
ولكن التفكير هو الذى يجعل مانقرؤه ملكاً خاصاً لنا ! »

(جون لوك)

القراءة . . أهى ترف ، أم ضرورة ؟

كم كتاباً ينبغى للمثقف أن يقرأ ، كل عام ؟ . . وكم دقيقة يستطيع أن يقرأ ، كل يوم ؟

ما هى الكتب — العربية ، والإفرنجية — التى لا غنى للمثقف عن قراءتها ؟

ما هى أجدر الكتب العالمية — من جميع العصور — بالقراءة ؟

هل الترجمة فن؟ وهل هى « أقل » قيمة ، وجهداً ، من التأليف . . أو « أكثر » ؟

أو ، بعبارة أخرى : لماذا تقرأ ؟ . . ومتى تقرأ ؟ . . وكيف تقرأ ؟ . . وماذا تقرأ ؟ . .

. . هذه بعض الأسئلة التى عنّ لى أن أطرحها للبحث فى هذا المقال ، وأن أحاول الإجابة عنها فى إيجاز ، بالقدر الذى يتسع له المجال . .

لماذا تقرأ ؟

« كل ما فعلته البشرية ، أو فكرت فيه ، أو ربحته ، أو كانته ، يرقد بين صفحات الكتب ، محافظاً عليه ، كأنما بواسطة يد سحرية ! »

(توماس كارلايل)

فوائد القراءة فى هذا العصر « العملى » الذى نعيش فيه ، كثيرة . . فأنت قد تقرأ :

١ — كى تزجى — أو « تقتل » — وقت الفراغ . .
٢ — أو لتتقن حرفة ما . .
٣ — أو لتنسى همومك ، وتهرب من نفسك . .
٤ — أو لتعيش أحلامك التى عجزت عن تحقيقها فى حياتك . .
٥ — أو لتذكى خيالك وتختبر ذكاءك بالكتب المثيرة والقصص البوليسية . .
٦ — أو قد تقرأ لمتعة القراءة فى ذاتها ، إذا كنت تعشقها . .
٧ — أو تقرأ لتوسع مداركك ، وتكتسب ما نطلق عليه لفظ «الثقافة» بشتى مفاهيمها . .
٨ — أو لتنمى شخصيتك وتغدو مرموقاً فى المجالس ، جذاب الحديث . .
٩ — وأخيراً ، وليس آخراً ، فأنت تقرأ لتزيد فهمك للإنسانية . .

.. ومن ثم يتسنى لك أن تقيم علاقاتك مع الناس على أسس السلام والمحبة.. فإن ما تخرج به من قراءاتك فى الكتب الجيدة ، من أن الناس جميعاً سواء ، فى جميع الأقطار والعصور ، يجعلك أميل إلى أن تسلك مع أصدقائك ، وجيرانك ، ومخالطيك ، مسلكاً ينطوى على التسامح ، حين تصادف بينهم شخصيات شاذة شبيهة بـ « الأب جوريو » ، أو « سيلاس مارنر » ، أو « ليدى ماكبث » . . إلخ .

متى تقرأ ؟

« هناك كتب تستحق أن يذوقها القارئ . .
وكتب تستحق أن يلتهمها .. وكتب تستحق أن تمضغ وتهضم ! »
(فرنسيس بيكون)

قد تقول : ولكن عملى ومطالب حياتى لا تترك لى وقتاً للقراءة . . وللرد على هذا الزعم « الوهمى » — أيًّا كانت ضخامة مشاغلك ومسئولياتك — ألخص لك بحثاً ، مدعماً بالإحصاءات ذات الدلالة البليغة ، نشره الباحث « لويس شوررز » بعنوان : « كيف تجد وقتاً لتقرأ » — How to find time to read وفيما يلى أهم ما انتهى إليه من نتائج وإحصاءات :

● إذا كنت قارئاً متوسطاً (عاديًّا) ، فأنت تستطيع أن تقرأ الكتاب العادى بمعدل ٣٠٠ كلمة فى الدقيقة (لكنك لن تبلغ هذا المعدل ،

أو تحافظ عليه ، إلا إذا قرأت يوميا ، بانتظام . . كما لن تحافظ عليه فى الكتب المتخصصة ، مثل العلوم ، والرياضيات ، والزراعة ، والشعر ، وكتب الأدب ذات الأسلوب الذى يستحق وقفة تأمل كل حين . . أو أى موضوع علمى جديد عليك) .

● ومعنى هذه السرعة ، أن تقرأ ٤٥٠٠ كلمة فى كل ١٥ دقيقة . . فإذا ضربت هذا الرقم فى ٧ أيام ، تكون الحصيلة ٣١,٥٠٠ كلمة فى الأسبوع . . أو ١٢٦,٠٠٠ كلمة فى الشهر . . أو ١,٥١٢,٠٠٠ (مليون ونصف) كلمة فى العام ، نتيجة للقراءة مجرد ربع ساعة كل يوم !

● ولما كانت الكتب تتراوح فى العادة بين ٦٠,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ كلمة فى المتوسط ، فإن المحصول السنوى لقارئ « الربع ساعة فى اليوم » يكون عشرين كتاباً فى العام !

● وقد جرب هذه الطريقة طبيب وعالم من أشهر أطباء العصر الحديث هو « سير وليم أوسلر » ، الذى تتلمذ عليه الكثيرون من أساطين الطب المعاصرين ، كما درس أطباء العالم كتبه المشهورة فى الطب . . وقد عزا عارفوه عظمته — فضلا عن تفوقه فى فنه الخاص — إلى ثقافته العامة ، البعيدة المدى ، فقد كان واسع الاطلاع على ما فعله الجنس البشرى — وفكر فيه — خلال العصور المتوالية ، وكان يدرك أن السبيل الوحيد للوقوف على أفضل تجارب بنى الإنسان هو قراءة ما كتبوه فى كتبهم . . لكن مشكلته كانت هى مشكلة كل رجل مشغول ، لا يملك خلال

الأربع والعشرين ساعة اليومية وقتاً يخرج عن حدود عمله ، سوى ما يقتطعه من ساعات قليلة للنوم وتناول الطعام وتلبية مطالب الحياة الضرورية .

لكن « أوسلر » توصل إلى الحل الذى ينشده فى مرحلة مبكرة من حياته ، فنظمها على أساس أن يقرأ لمدة ربع ساعة كل ليلة قبل النوم مباشرة ، أيًّا كانت الظروف ! . . فكان إذا أوى إلى فراشه فى الحادية عشرة مثلا ، يقرأ حتى الحادية عشرة والربع . . وإذا شغلته جراحاته أو أبحاثه حتى الثانية صباحاً ، يقرأ إلى الثانية والربع ، وهكذا . . ولم يشذ عن هذه القاعدة التى وضعها لحياته يوماً واحداً ، خلال نحو نصف قرن ! . . وكان الدستور الذى استنّه لقراءاته الليلية أن تكون منعدمة الصلة بمهنته وعمله ، فحصل من هذه القراءات على اطلاع واسع نادر المثال ، كفل التوازن فى شخصيته بين التثقيف المهنى والتثقيف العام !

وفى العالم كثيرون من أمثال هذا الطبيب الفذ ، نمّوا شخصياتهم بالقراءة فى غير نواحى عملهم أو تخصصهم . . وقد اشتهر الألمان بصفة خاصة بالإقبال على القراءة فى شتى الموضوعات ، ولعل هذا من عوامل تفوقهم وتعدد وجوه ثقافتهم وشمولها كافة مناحى المعرفة .

● ومن أمثلة الإقبال على القراءة — فى جميع الظروف — أن ملازماً فى الجيش الأمريكى (خلال الحرب العالمية الثانية) لفت الأنظار بتضخم ملف خدمته بشهادات التقدير من رؤسائه ، والإعجاب بسعة اطلاعه ووفرة معلوماته ، حتى دفع الفضول أحدهم إلى تقصى أسباب

هذه الظاهرة . . فتبين له أن الضابط المذكور كان ينتهز كل فرصة ليقرأ ، إلى درجة أنه كان إذا صدر إلى طابوره الأمر بالوقوف فى حالة « انتباه » لبضع دقائق ، يخرج من جيبه كتاباً ليقرأ فيه ! . . وكان قد نمّى فى نفسه — منذ صباه الباكر — عادة أن يحمل فى جيبه كتاباً صغيراً ليقرأ فيه فى أية لحظة لا يجد فيها شيئاً آخر يفعله . وقد وجد فى هذه العادة متعة وفائدة ، وواظب على ممارستها فى كل فترات الانتظار التى يضيعها أكثر الناس هباء ، مثل فترات انتظار الأتوبيس ، والطعام ، والطبيب ، والحلاق ، والتلفون ، وحفلات السينما والمسارح . . إلخ . . وهى فرص تتيح لكل شخص أضعاف أضعاف الخمس عشرة دقيقة المطلوبة لقراءة عشرين كتاباً فى العام ، أو ألف كتاب فى نصف قرن !

. . ولو انصرف كل راكب أتوبيس أو ترام عندنا — من الجالسين على الأقل — إلى القراءة أثناء الطريق ، بدلاً من الاشتراك فى الأحاديث العقيمة ، أو الانحياز إلى أحد الطرفين فى المشادات ، أو التدخل فى شئون بقية الركاب ، لأراحوا واستفادوا !

. . كل ما يلزمك لتنفيذ هذا البرنامج شىء واحد : أن تتوفر لديك الإرادة ، أى الرغبة فى القراءة . . وعندئذ سيسهل عليك أن تجد ١٥ دقيقة من يومك تقرأ فيها ، مهما كانت مشاغلك ، بشرط أن تجعل الكتاب فى متناولك فى كل ظرف : ضع كتاباً فى جيبك حين ترتدى سترتك ، وكتاباً آخر بجوار فراشك ، وثالثاً فى الحمام ، ورابعاً فى غرفة المائدة ، وهكذا . .

كيف تقرأ ؟

« الكتب هى ثروة الدنيا المخبوءة ، وميراث الأجيال والشعوب »
(هنرى دافيد ثورو)

وقراءة الكتاب ، مثل تأمل اللوحة أو التمثال ، ينبغى لها ظروف معينة أو « عادات حسنة » لا بد من مراعاتها فيها ، « وعادات سيئة » يحسن تجنبها ، كيما تتيح للقارئ أقصى متعة ، بأقل قدر من الجهد الضائع . . وقد أحصى الأخصائى « دونالد ماك كامبل » أهم هذه العادات « الحسنة » و « السيئة » فيما يلى :

● من العادات السيئة أو « العقبات » التى تعوق التأمل والقراءة المجدية : المعدة الخاوية . . والمعدة الممتلئة أكثر من اللازم . . وخير غذاء يؤهلك للقراءة المفيدة بعض الفاكهة . أما إذا تناولت أكلة ثقيلة ، فينبغى أن تنتظر ساعة على الأقل قبل أن تقرأ ، كى لا يصعد إلى رأسك الدم الذى يلزم بقاؤه فى المعدة لساعد على الهضم .

● الإرهاق الجسمانى عدو آخر للتركيز اللازم أثناء القراءة . . فإن الطاقة الحرارية المطلوب توافرها أثناء القراءة الجادة ، تكاد تعدل الطاقة اللازمة للعبة رياضية خفيفة . على أن ذلك لا يعنى أن يقبل المرء على القراءة وهو فى حالة خمول تام ، بل يحسن أن يتمشى ولو قليلا فى الحجرة

قبل القراءة ، كي يزيل الخمول عن جسمه وعقله معاً ، وينشط الدورة الدموية ، إذ كثيراً ما يصيب خمول الجسم ذهن صاحبه بعدواه .

● ومن العقبات التي تعوق القراءة المجدية ، الشعور بالقلق ، أو الشوق الجنسي ، أو التوتر العصبي الناشئ عن الإمساك ، أو عن حاجة الجسم إلى شيء من الرياضة . . كما يلزم تجنب الضجيج أو المقاطعات المتكررة التي تفسد التأمل والاستغراق . . على أن توفير الجو الهادئ المريح ينبغي أن لا يغالى فيه ، كما فعلت تلك الثرية العجوز التي أعدت في قصرها غرفة خاصة للقراءة ، بطّنت جدرانها بالمواد العازلة للصوت ، وزودتها بأجهزة تكييف الهواء ، وبسائر أدوات الترف ومستلزماته . . فلما اكتملت لها كل أسباب الراحة ، فوجئت بما أفسد عليها كل تدبيرها : صارت لا تكاد تخلو إلى الكتاب في صومعتها المثالية ، حتى يدهمها النعاس في الحال !

● ولا بد لممارسة القراءة من مقعد مناسب ، يتيح جلسة « مريحة » ، لا ينحني فيها العمود الفقري كالقوس أثناء انكباب القارئ على كتابه . . وينبغي أن تكون صفحة الكتاب موازية للوجه ، وعلى بعد نحو أربعين سنتيمتراً منه ، وأن تكون حافة الكتاب العليا في مستوى العينين .

● وللإضاءة ، ودرجتها ، وزاويتها ، أهمية كبرى في إغراء الشخص بالمضي في القراءة ، وهو مستريح النفس والبصر ، أو تنفيره منها وصرفه عنها . . لذلك يجب أن يراعي المرء عند جلوسه للقراءة أن يكون الضوء

المنبعث من المصباح أو النافذة القريبة منصبّاً على كتفه اليسرى إذا كان من عادته أن يمسك الكتاب بيده اليمنى . . أو العكس بالعكس .

● ويقتضى توفير الجو الملائم للقراءة أن يكون المكان جيد التهوية ، لا يفتقر إلى الأوكسجين اللازم لتنشيط الجسم والذهن . كما يحسن أن تكون درجة حرارة المكان معتدلة — حوالى ٢٠ درجة مئوية — بحيث لا يشكو الشخص من البرد أو الحر ، وإلا استيقظت غريزته من نومها لتطالب عقله بمزيد من الدفء أو الهواء ، أو بالعكس .

● ولكى لا يتسرب الملل إلى نفس القارئ ، ينبغى له أن يجعل فى متناوله — حين يجلس للقراءة — خليطاً منوعاً من الكتب ، كى يدع الواحد ويتناول الآخر إذا انتابه الضيق من كتاب ، أو صرفه عنه مزاجه أو حالته النفسية . وكثيراً ما يحدث أن يعجب القارئ بكتاب فى ظل حالة نفسية معينة ، ثم لا يعجبه نفس الكتاب فى جلسة أخرى ، أو حالة نفسية مغايرة !

● وإذا جلست لتقرأ ، فعليك أن تحول بصرك عن الكتاب الذى تقرؤه ، بين الحين والآخر — كل نحو خمس دقائق — لتلقى نظرة إلى الطريق ، أو إلى المبنى المواجه لك ، أو إلى السحب فى السماء ، فإن النظرة إلى بعيد تريح عضلات العين من الإجهاد ، وترد لها نشاطها من جديد . .

● ويجدر بك أن تراعى مبادئ أو قواعد معينة تتعلق بنوع المادة

التي تقرؤها . . فإذا أخذت في قراءة كتاب من كتب القصص القصيرة مثلا ، فلتحرص على أن تقرأ قصة ً كاملة ً منه – أو أكثر – في الجلسة الواحدة ، لأن القصة القصيرة وحدة متكاملة ، تفسدها التجزئة على أكثر من جلسة . . وبالنسبة للقصص الطويلة أو المسرحيات ، يحسن أن تقرأ فصلاً كاملاً منها في كل جلسة . . وإذا تعذر عليك فهم معنى كلمة أثناء قراءة القصة ، فلا تقطع تسلسل الأفكار بالرجوع إلى القاموس في التو واللحظة ، بل يمكنك وضع علامة سريعة تحتها بالقلم الرصاص ، للبحث عن معناها بعد الانتهاء من القصة أو الفصل ، ولا سيما أنه يندر في القصص أن يعجزك الجهل بمعنى لفظ واحد عن فهم السياق ولو بصفة مؤقتة . أما في الكتب غير القصصية – والكتب العلمية على وجه الخصوص – فإن اللفظ غير المفهوم قد يفسد عليك تذوق فقرة طويلة بأكملها . وهنا لا بأس من اللجوء إلى القاموس كلما استدعى الأمر .

● والقارئ العادي يقرأ أربع كلمات في الثانية ، أو حوالى ١٤,٥٠٠ كلمة في الساعة . وهذا يعني أن الشخص الذي يقرأ لمدة ساعة كل يوم ، يستطيع أن يقرأ نحو خمسة ملايين كلمة في السنة ، أي نحو خمسين كتاباً كل عام (من الكتب المتوسطة ، ذات المائة ألف كلمة) . . على أن هذه السرعة يمكن زيادتها عن هذه النسبة بالتمرين[١] .

---

(١) وقد رأينا أن الأخصائي الآخر « لويس شورز » قدر سرعة القراءة بثلاثمائة كلمة في الدقيقة ، أي خمس كلمات في الثانية ، لا أربع !

ماذا تقرأ ؟

« فى العلوم ابدأ بقراءة أحدث الكتب ، وفى الآداب أقدمها ، فالكلاسيكيات لا تبلى جدتها ، وهى دوماً حديثة » .

(إدوار بولوار ليتون)

* وقبل أن نستعرض الكتب — العربية والإفرنجية — التى لا غنى لمثقف عن قراءتها ، (أو قراءة جانب منها على الأقل ، وفقاً لميوله ونزعاته) ، والمراجع العالمية التى لا غنى له عن اقتنائها . . نبدأ بحصر أبواب المعرفة الرئيسية ، وهى حسب ترتيبها الأبجدى :

١ — آثار

٢ — أدب بمعناه الضيق ، الذى يطلق عليه بالفرنسية Belles Lettres ويشمل : النقد ، المقالات ، السيرة الذاتية ، الرحلات .

٣ — أديان

٤ — تاريخ

٥ — تراث الأقدمين

٦ — تراجم (سير الخالدين)

٧ — دراما (مسرحيات)

٨ — سياسة

٩ — شعـــر

١٠ — علوم

١١ — علم النفس

١٢ — علوم اجتماعية

١٣ — فلسفة

١٤ — فنون جميلة

١٥ — قصص

١٦ — كلاسيكيات

١٧ — موسيقى

١٨ — موسوعات ومراجع

١٩ — نشأة وتطور الإنسان

٢٠ — هوايات وحرف (للرجل ، وللمرأة) .

ومن العسير أن تلتقى ميول القراء جميعاً وأذواقهم ، أو أذواق أكثريتهم ، عند كتب معينة ، سواء من التراث القديم ، أو الإنتاج المعاصر . . العربى ، أو العالمى . . وإذا كنت سأحاول هنا الإشارة إلى أهم الكتب والمراجع ذات القيمة الباقية والنفع الجليل لكافة المثقفين ، فما ذلك إلا من قبيل « الترشيحات » أو « الاقتراح » فحسب . ذلك أننى أومن بقول صمويل جونسون : « إن الإنسان ينبغى أن يقرأ ما يميل إلى قراءته ، وتقوده اليه — أو تغريه به — هواياته . . فإن ما يقرؤه ” كواجب “ لن ينفعه إلا نفعاً ضئيلا ! » .

ماذا تقرأ من التراث العربى القديم والأدب الحديث ؟

● ومهمة الاختيار هنا متروكة لذوق القارئ كما أسلفنا ، لذلك سأكتفى بمجرد التذكير بأسماء أشهر أعلام الفكر العربى القدماء والمحدثين — بغير ترتيب — تاركاً لكل قارئ أن يختار من مؤلفاتهم ما يتفق مع ميوله واتجاهاته :

فبعد القرآن الكريم وكتب التفسير والحديث — التى لا غنى عن قراءتها لمثقف — تجيء مؤلفات : الطبرى ، ابن هشام ، الشريف الرضى ، الجاحظ ، الأصبهانى ، ابن عبد ربه الأندلسى ، القلقشندى ، ابن المقفع ، ابن الأثير ، المبرد ، النويرى ، البلاذرى ، ابن سينا ، ابن رشد ، الدميرى ، ابن خلدون ، الغزالى ، ابن قتيبة ، ابن حزم ، ابن كثير ، ابن طفيل ، السهروردى ، أبى العلاء ، البحترى ، المتنبى ، ابن الرومى ، عمر بن أبى ربيعة ، أبى العتاهية ، الأخطل ، أبى تمام ، جرير ، الفرزدق ، أبى نواس ، امرئ القيس ، الخنساء ، ابن زيدون ، بشار ، الهمذانى ، الفارابى ، أبى حيان ، حسان بن ثابت ، البهاء زهير إلخ

ولا أنسى معجزة الأدب العربى القديم « ألف ليلة وليلة » ، ثم تراث الأدب الشعبى : قصص عنترة ، والظاهر بيبرس ، ، وسيف بن ذى يزن ، والزير سالم ، وأبى زيد الهلالى . .

أما من أدباء ومفكرى العربية المحدثين فتحضرنى – على سبيل المثال لا الحصر – أسماء : الجبرتى ، المويلحى ، رفاعة الطهطاوى ، جمال الدين الأفغانى ، الإمام محمد عبده ، قاسم أمين ، فرح أنطون ، المنفلوطى ، محمد تيمور ، البشرى ، طاهر لاشين ، المازنى ، محمد حسين هيكل ، الجارم ، العقاد . . ومن الشعراء : شوقى ، حافظ ، مطران ، العقاد ، على محمود طه ، كامل الشناوى ، محمود عماد ، الزهاوى ، الشابى ، جبران ، إيليا أبو ماضى [1] .

ماذا تقرأ وتقتنى من الكتب والمراجع العالمية ؟

« خير تعريف للكتاب فى نظرى أنه عمل من أعمال السحر ، تخرج منه أشباح وصور ، لتحرك كوامن النفوس وتغير قلوب البشر » .

(أناتول فرانس)

● فإذا انتقلنا من مجال الكتب المؤلفة بالعربية ، إلى مجال الكتب العالمية ، سواء المترجم منها إلى لغتنا ، أو الذى لا تتيسر قراءته إلا بلغته الأصلية أو إحدى ترجماته الإفرنجية ، ألفينا الميدان ينفسح ويتشعب إلى غير حد . . ويكفى لإدراك مدى هذا الاتساع والتشعب أن تعلم أنه

(١) لم أورد هنا أسماء المعاصرين الأحياء – مد الله فى أعمارهم – من الأدباء والشعراء ، فهم معروفون للقراء بطبيعة الحال . .

فى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها يصدر كل عام ١٥ ألف كتاب جديد ! . . وأن الطبعات الشعبية من الكتب التى تصدرها دور النشر الأمريكية بلغت فى عام ١٩٤٧ نحو مائة مليون نسخة . . وفى عام ١٩٥١ ارتفعت إلى ٢٣٠ مليون نسخة . . ثم واصلت قفزاتها حتى بلغت فى عام ١٩٦٥ نحو ٤٥٠ مليوناً ! . . وهذه الكتب تعرض هناك الآن فى نحو مائة ألف مكان ، إذ لا يقتصر عرضها على المكتبات وحدها ، وأكشاك الصحف ، بل تباع أيضاً فى حوانيت البقالة ، والصيدليات ، ومحطات خدمة السيارات ، علاوة على الموانى ، والمطارات ، ومحطات السكك الحديدية . . إلخ .

ذلك أن العصر الذى كان اقتناء الكتب فيه وقفاً على الأغنياء والقادرين قد انتهى وانقضى ، وكما انتشرت هواية جمع الطوابع فصارت هواية التلاميذ ، بعد أن كانت هواية الملوك ، انتشرت هواية اقتناء الكتب فصارت ظاهرة ديمقراطية — بعد أن كانت ترفاً أرستقراطياً — وأصبح للكتاب مكان ، ومكانة ، فى بيت كل مثقف ، أياً كانت الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها ، ومهما بلغت ضآلة موارده المالية ، وذلك بفضل الطبعات الشعبية أو ال Paperbacks — أى ذات الغلاف الورقى ، غير المقوى — التى صارت فى متناوله .

وبفضل هذه الطبعات الرخيصة الثمن بات فى وسع كل إنسان أن يقتنى كتباً فى كافة فروع المعرفة ، وليس فى الفرع الذى يتخصص

فيه بحكم عمله . ذلك أنه خير لكل منا أن يعرف عن كل فرع من فروع المعرفة شيئاً — بصفة عامة — من أن يعرف عن فرع واحد كل شيء ، ولا يعرف شيئاً ما عن سواه من الفروع !

وبصفة مبدئية ، ينبغي أن يقتني كل قارئ في بيته المراجع الأساسية التالية ، أيّاً كان عمله أو اتجاه هوايته في القراءة :

١ — معجم لغوى أو أكثر ، من وإلى اللغة التي يتقنها واللغة التي يقرأ بها .

٢ — دائرة معارف ، أو موسوعة ، واحدة على الأقل (سواء الموسوعة البريطانية ، المؤلفة من ٢٤ جزءاً ، أو الأمريكية ، المؤلفة من ثلاثين جزءاً ، (إذا كان هو أو أفراد أسرته يقرءون على نطاق واسع ، قراءة بحث وتخصص) . . أو موسوعة موجزة من ذات الجزء الواحد ، ومثلها كثير ، في جميع اللغات الحية .

٣ — دليل سنوى يلخص أهم أحداث كل عام ، من النوع الذى يطلق عليه World Almanac ، وتوجد عشرات الطبعات المختلفة منه كل عام ، باللغتين الإنجليزية والفرنسية . وتجد فيه الإجابة عن مئات الأسئلة التي تثيرها المناسبات ، إلى جانب ألوان من المعلومات العامة التي تهم كل إنسان .

٤ — دليل سنوى لأهم الشخصيات التي أدت دوراً هامّاً في كافة المجالات : في العلوم ، والطب ، والسياسة ، والأدب ، وغيرها ، ويطلق

على هذا الدليل بالإنجليزية (Who's Who) .

٥ ــ معجم لسير الأعلام : فى كافة العصور ، وكافة البلاد ، وكافة نواحى الحياة . (والموسوعات الكبرى ذات العشرين أو الثلاثين جزءاً قد تغنى عن هذا المعجم) .

٦ ــ أطلس عالمى أو كتاب للخرائط ، يشمل خرائط تفصيلية لجميع القارات والدول الكبرى ، مع إحصاءات عن عواصم العالم وعدد سكانها والمسافات بينها وخطوط الطيران وجداول التوقيت الزمنى فى كل منها . . إلخ .

٧ ــ دليل طبى أو صحى ، يصلح مرشداً لجميع أفراد الأسرة فى كافة شئون الصحة والمرض ، فى انتظار حضور الطبيب ، أو لتنفيذ تعليماته بعد انصرافه ، وقد يغنى عن الطبيب فى كثير من الحالات ، سواء للعلاج أو للوقاية .

الكتب المترجمة . . والكتب التى لم تترجم بعد

« الكتاب الجيد مثل دم الحياة الثمين لأرواح علوية ، محفوظ ومخبوء خصيصاً من أجل حياة أخرى ، وراء الحياة » .

(جون ميلتون)

● ونعود ، من هذا الاستطراد ، إلى حديث الكتب العالمية الجديرة بالقراءة : ما ترجم منها ، وما لم يترجم . ومن أسف أن كل ما ترجم حتى

الآن من الكتب والمراجع التى لا غنى عنها لمثقف لا يزيد على واحد فى المائة مما ينبغى أن يترجم ! . . فضلاً عن أن الذى ترجم لا ينتظمه أى تخطيط منهجى ، فهو لم يترجم وفقاً لخطط أو دراسات ذات أبعاد محددة ، وإنما ترجم بناء على اقتراحات فردية متناثرة من كل مترجم يقع فى يده كتاب يتوسم فيه الصلاحية فيعرض فكرة ترجمته على الناشر أو الهيئة التى يتعامل معها ، فإذا وافق أو وافقت خرج الكتاب إلى النور ، وهكذا، دون ما رابطة حقيقية بين هذا الكتاب أو ذاك .

أقول هذا وأمامى مئات من الكتب والدراسات التى تولت إصدارها أكبر الجامعات العالمية ، وأشهر الأخصائيين ، فى كل فرع من فروع المعرفة ، تتضمن قوائم تفصيلية بنحو ثلاثة آلاف كتاب اتفقت آراء جميع ذوى الشأن على جدارتها بالقراءة والاقتناء ، (ومن ثم جدارتها بالترجمة إلى شتى اللغات الحية) ، وهى كتب تغطى جميع عصور الحضارة البشرية ، منذ أيام الإغريق حتى يومنا الحاضر :

فهذه قائمة يرشحها المفكر الإنجليزى الشهير « ألدوس هكسلى » . .
وهذه أخرى انتقاها الأديب الألمانى الكبير « توماس مان » . .
وثالثة من وضع فيلسوف الصين المعروف « لين يوتانج » . .
ورابعة للكاتب الإنجليزى المعاصر « هسكيث بيرسون » . .
وخامسة للناقد والمعلق المشهور « ج . ب . بريستلى » . .
وسادسة وعاشرة وعشرون . . إلخ . . وضعتها جامعات : لندن ،

كمبريدج ، سانت أندروز ، أبردين ، أكسفورد ، ليدز ، ليفربول ، ديجون ، باريس ، نيويورك ، واشنجتون ، كولمبيا ، ييل ، هارفارد ، بنسلفانيا ، شيكاجو ، وسكونسين ، كانساس ، فرجينيا ، سيراكوز ، كاليفورنيا ، تنيسى ، سنسناتى ، منيسوتا ، كولورادو ، بروكلين ، كارولينا الشمالية . . ومعهد كارنيجى . . ونادى القلم الدولى . . إلخ .

وثمة قوائم وضعت حسب التسلسل الزمنى ، تبدأ بكتب اليونان . . فالرومان . . فالعصور الوسطى . . فعصر النهضة . . فعصر أسرة تيودور فى إنجلترا . . فالقرن السابع عشر . . وما تلاه . . إلى القرن العشرين .

. . وقوائم روعى فيها التقسيم النوعى حسب فروع المعرفة المتشعبة : فخصصت فصلاً لكل فرع : لكتب الأديان ، فكتب الآثار ، فالأدب ؛ فالعلوم (وهذه تنقسم بدورها إلى عشرات الأبواب والفصول ، بقدر تعددها) ، ثم الفلسفة ، فالفنون ، فالقصص . . إلخ . وقد سبق بيان أبواب المعرفة بالتفصيل .

. . وهذا نوع آخر من القوائم تعددت أبوابه بتعدد البلاد والحضارات واللغات : فهذه قائمة بالكتب الألمانية ، فى جميع العصور . . وقوائم أخرى بالكتب الإيطالية . . والفرنسية .. والإنجليزية ، (والأمريكية) .. والروسية . . والنمسوية . . إلخ . . ثم كتب الشرق ، من عربية قديمة ، وفارسية ، وهندية ، وصينية ، ويابانية .

وبعض الدراسات تضع قوائمها وفقاً لألوان الكتابة وأساليبها وقوالبها

الفنية : قائمة للدراما (المسرحيات) . . وأخرى للرواية . . وثالثة للقصة القصيرة .. ورابعة لدواوين الشعر . . وخامسة للرحلات . . والسير . . والمقالات . . والرسائل . . والنقد . . إلخ .

ثم هذه قائمة ترشيحات لأعظم مائة كتاب فى جميع العصور . . (وقد ورد فيها ، بين هذه الكتب المائة : القرآن ، والتوراة ، وألف ليلة وليلة . . إلخ . .)

. . وأخرى بأعظم خمسمائة كتاب كلاسيكى ، من جميع البلاد واللغات . .

وثالثة بأسماء أهم مائة مرجع ، فى شتّى فروع المعرفة العشرين . .

ورابعة بأحب كتب العالم إلى القراء . منذ فجر التاريخ . .

وخامسة بأشهر كتب القرن العشرين . .

وسادسة بأعظم ستين قصة فى جميع العصور . .

وسابعة بالكتب التى غيرت وجه التاريخ والحضارة . . أو التى ساهمت فى هز كيان المجتمع الإنسانى . .

وثامنة بأشهر كتب الأطفال والصبيان فى شتّى اللغات والبلاد . .

وتاسعة بأشهر قصص الحب فى آداب العالم . . أو أعظم القصص الواقعية . . أو أبشع الجرائم والمحاكمات الجنائية . . أو أخلد القصص الطويلة والقصيرة . .

. . وهذه قائمة ترشيحات وضعتها جامعة (شيكاجو) ، تتضمن

« برنامجاً خمسياً » لقراءة أعظم كتب العالم فى خمس سنوات . . . وقد خصصت الجامعة لكل سنة من السنوات الخمس مجموعة من الكتب المطبوعة فى طبعات شعبية ذات غلاف ورقى ، لا يزيد ثمنها على ١١ دولاراً على وجه التقريب !

وتقرر الناقدة الأمريكية « آن ريشتر » أن دراسة أو تقريراً واحداً من التقارير التى من هذا النوع ، تعطى القارئ مفتاحاً ييسر له الحصول على حصيلة ثقافية ينفق عليها شخص آخر ما لا يقل عن ثلاثة آلاف وخمسمائة دولار ، إذا تلقاها عن طريق الدراسة فى إحدى الجامعات أو المعاهد العليا !

وفى هذه الأمثلة الكفاية ، فإن الحديث فى موضوع الترجمة ، وتخطيط ما ينبغى أن يترجم ، والإمكانيات التى يجب أن توضع فى خدمة حركة الترجمة فى بلادنا ، حديث طويل ، يثير الأشجان . . ومن هذه الأشجان أن كبار الأدباء الأكفياء عندنا لا يزالون يعرضون عن الترجمة ، باعتبار أنها – فى رأيهم – دون التأليف ، من حيث المكانة الأدبية التى تحققها لهم . . وهى نظرة متخلفة ، فندها ودحضها نادى القلم الدولى فى اجتماعه الذى عقد فى طوكيو باليابان منذ سنوات قليلة (وقد مثل مصر فيه يومئذ الأستاذ الدكتور محمد عوض محمد ، ومثل بريطانيا الشاعر « ستيفن سبندر » ، وحضره الأديب الأمريكى « شتاينبك » وغيره من كبار الفنانين وقادة الفكر كمراقبين للمؤتمر) . وقد

أجمع المؤتمرون فى الكلمات التى ألقوها ، وفى القرارات التى اتخذوها ، على النقاط الآتية :

أولا : أن الترجمة « فن » ينبغى أن يحتل مكانه بين سائر الفنون الأخرى ، من أدب ، ونحت ، وتصوير ، وموسيقى . . والمترجم فنان ينبغى أن يحتل مكانه بين الشاعر ، والروائى ، والكاتب المسرحى ، والنحات ، والمصور ، والموسيقى ، وغيرهم[1] .

ثانياً : أن كبار الأدباء ينبغى أن يتجهوا إلى الترجمة ، فإنهم بإحجامهم يتركون هذا الميدان وقفاً على تجار الفن والدخلاء عليه ، ويضرون بصالح الشعوب ضرراً بليغاً .

وقد ناقش المؤتمرون أسباب إحجام كبار الكتاب عن اقتحام ميدان الترجمة ، ولخصوها فيما يلى :

(ا) الجهد العظيم الذى تتطلبه ترجمة الأعمال الأدبية والفنية .

(ب) قلة الجزاء الذى يلقاه المترجم . فالترجمة فى نظر الكثيرين تجىء فى المرتبة الثانية من حيث الخلق ، والمترجم فى نظر الكثيرين «ظل» للمؤلف الأصلى . وأكاليل الغار تقدم للمؤلف فى الحالتين ، سواء عند تأليفه العمل الأصلى ، وعند ترجمته من لغته إلى لغة أخرى بواسطة

---

(١) من المعروف أن الأديب الروسى « باسترناك » — الفائز بجائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٥٨ — قد اشتهر كمترجم لأعمال شكسبير إلى اللغة الروسية ، قبل أن يشتهر كمؤلف لقصة « دكتور جيفاجو »! . . وقد لخص هذه النقاط عن تقرير المؤتمر الأستاذ أنيس توفيق

المترجم . (وقد أطلق المؤتمرون على المترجم لقب « الجندى المجهول » !)
(ج) طول المدة التى تتطلبها ترجمة عمل فنى كبير .
ثالثاً : أن للترجمة دوراً خطيراً فى العالم المعاصر ، فهى تخلق التفاهم الإنسانى الذى يساهم فى زيادة فرص السلام العالمى .
وتعليقاً على ذلك ، لا يملك المرء إلا أن يتساءل : ماذا كان يمكن أن يكون عليه عالمنا لو لم تترجم الكتب السماوية ، وأعمال هوميروس ، وسوفوكليس ، ودانتى ، وشكسبير ، وسرفانتس ، وجوته ، وتعاليم الفلاسفة وقادة الفكر ، والآثار العلمية الكبرى ، إلى لغات العالم المختلفة ؟ !
وأحب أن أضيف إلى هذا التساؤل ، فى مرارة ، نيابة عن القارئ العربى : ماذا ترجم حتى الآن إلى لغتنا العربية من أعمال هؤلاء الأعلام ، وغيرهم مئات ومئات ؟ ! . . وماذا ترجم من تعاليم الفلاسفة وآثار قادة الفكر ، فى جميع العصور ؟ . . ثم ماذا ترجم من المراجع والموسوعات وأمهات كتب العالم ؟ . . وماذا ترجم من الكتب العلمية والأدبية والفنية الكبرى ، التى تعتبر حجر الأساس فى حضارة دول الغرب ؟
ومتى يترجم — من أجل مائة مليون عربى — الإنتاج العالمى المعاصر ، فى كافة ميادين المعرفة ؟
متى يترجم إنتاج أساطين الفكر والعلم والأدب فى العالم فى القرن العشرين ، والقرن التاسع عشر ، والثامن عشر ، والسابع عشر ؟
متى يترجم التراث الكلاسيكى الأوربى منذ عصر النهضة ، وما

قبل عصر النهضة ؟

متى يترجم التراث اليونانى القديم ، بأكمله ؟ !

متى يترجم التراث الصينى والهندى القديم ، من الحكمة ، والفلسفة ، والفكر ، والفن ؟

بل متى يترجم التراث « المصرى القديم » ، الذى تزخر مكتبات أوربا وأمريكا بترجماته إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية وسواها ، ولا نرى نحن أية ترجمات له إلى لغتنا العربية ؟

ومتى . . ومتى . . ومتى . . ؟

وفى هذا القدر الكفاية . . فالحديث يبدو بلا نهاية !

حلمي مراد

شيشرونٌ قال قولاً حبَّذا قول النصوحِ
إنَّ بيتاً دون كتْبٍ جسدٌ من غير روحِ

عيسى إسكندر المعلوف

الفهرس

صفحة

رقم الإيداع	١٩٩٨/١٥٢٧٨	
الترقيم الدولى	977-02-5650-1	ISBN

١/٩٨/٦٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

لماذا نقرأ ؟

لطائفة من المفكرين

«عندما سألنى سائل عن أكبر دافع حفزنى إلى القراءة.. أجبت بلا تردد: هذا الكتاب الصغير الذى أصدرته دار المعارف منذ سنوات فكان له تأثير السحر علىَّ وعلى عشرات الآلاف من أبناء جيلى.

وبمناسبة المناخ الثقافى المتميز الذى أوجده مشروع السيدة سوزان مبارك للقراءة للجميع ، تعيد دار المعارف طبع هذه النسخة النادرة من الكتاب كما هو، وبنفس الحروف، مع إضافة مقال للدكتور حسين كامل بهاء الدين وزير التربية والتعليم، لأن الأجيال الجديدة أحوج ما تكون الآن لتعرف فعلاً لماذا تقرأ.. وماذا تقرأ..»

رجب البنا

٠٠-٥٤١٧/٠١